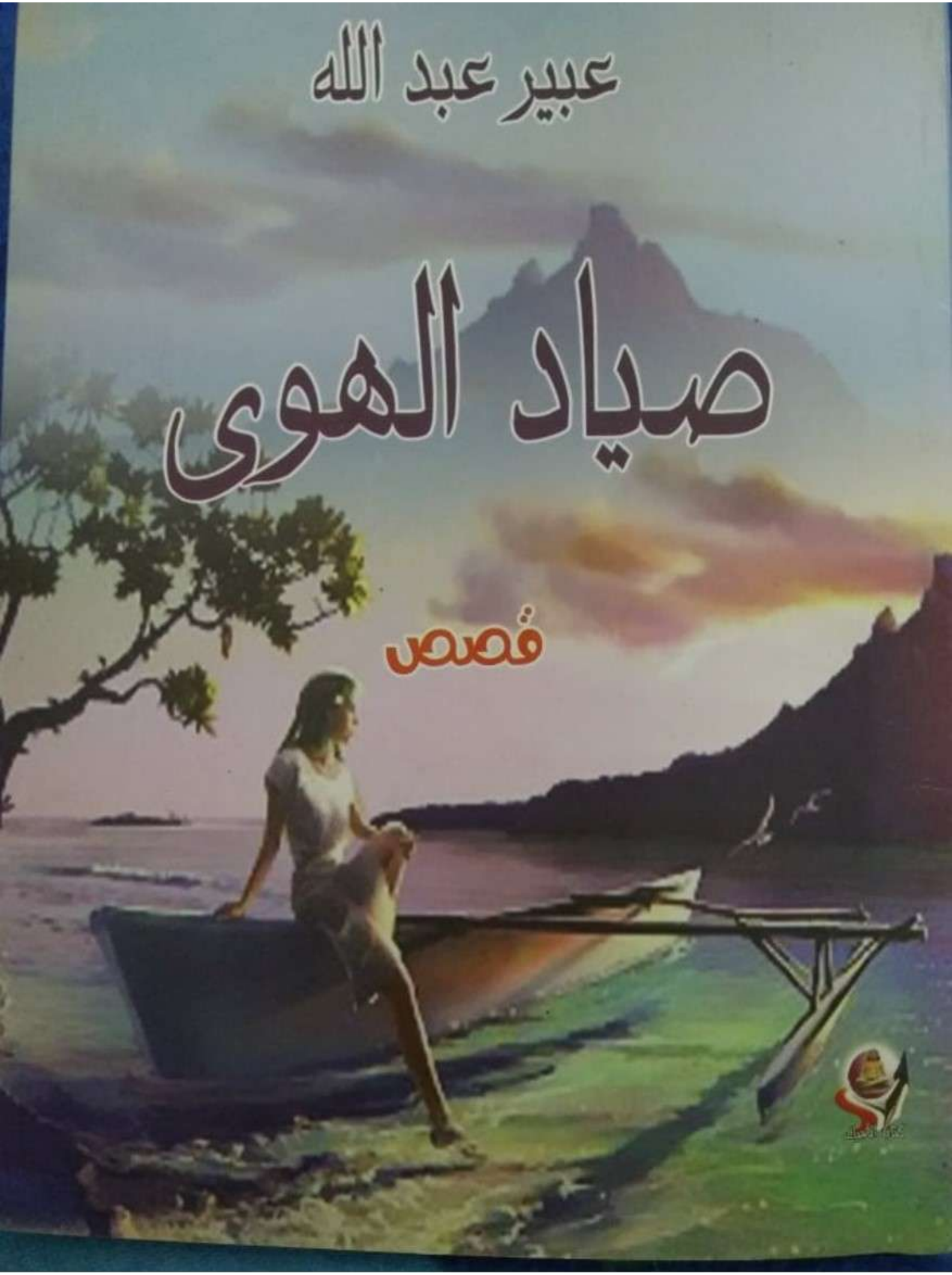

عبير عبد الله
صياد الهوى
قصص

الكـريم

بيضاء،بضة،جميلة الوجه،ملفوفة القوام،لم أشعر بهذا الجمال يومًا،و كيف أشعر به و أنا لم أجن ثماره المشتهاة ؟!،بل أين هو الآن ؟!.

أشتاق إلى من يهدهد مشاعرى،من يسكن قلبى إليه،من يحترم عقلى و أحلامى،من تهدأ نفسى بجواره،من يضخ فى عروقى الأمل و يروى فيها الحنين،من يجعل لحياتى معنى و مذاق .

أشتاق،اشتقت،يئست،اشتقت،دب الأمل،مات الأمل ولم أمت .

لا أقوى على العمل و لا الحياة،أريد مكانًا ألوذ به وأنجو بنفسى،أريد راحة ولو بضعة أيام !.

وها قد حصلت على إجازة،فلأنعم بالراحة بضع ساعات لعدة أيام،ليس لى إلا أمى المريضة و بيتنا الفقير،لن أخبره بأمر هذه الإجازة و لا بذهابى لأمى فقد أقسم علىّ ألا أفعل،أيصعب عليه أن يجعلنى مرتاحة الضمير فيعذبنى به ؟!،عذرى الوحيد أننى أعلم جيدًا أنه لن ينفذ قسمه هذا و يعتقنى إلا بعد أن يقتطع من لحمى و دمى كل مليم أنفقه علىّ حتى لو أخذ حقه عشرات المرات !.

جلست تحت أقدام أمى و بللت يديها بدموعى،تناولنا معًا بعض الفاكهة التى يحرمنى منها حتى لو اشترتيها أنا بمالى !،شبعت دعاءً من أمى و حنانها،وضعت جنبى جوارها على الفراش و لم أرفعه إلا موعد الانتهاء من عملى الرسمى المتغيبة عنه اليوم،لملمت نفسى و عدت،و قد عادت أوجاع الدنيا تتلبس جسدى كله.

- لماذا تأخرتى ؟!،ألا تحافظين على بيتك و مواعيده ؟!،أليس لك رجلاً حتى تسارعى إليه لقضاء مطالبه ؟!،أم أنه لطول العهد بك لم ..

امتلأ قلبى غيظًا لإهانتى بأنه قد تواضع كثيرًا لزواجه مني و إنعامه علىّ بلقب (زوجة) بعد أن كنت (عانسًا)،نظرت إليه باستسلام فلم يكن لدىّ أى قدرة على أى شىء.

- ماذا تريد ؟

- المطبخ يا هانم،و أشاح بيده و كأنه يقول لى (غورى) .

دخلت المطبخ وجدته (يضرب يقلب)،القذارة فى كل مكان،الأرض مبللة بها آثار للدهون،البوتجاز متسخ،المواعين تملأ الحوض و بعض الحلل مركونة أسفله فعلمت أنه قد طبخ طعامه و تغدى مع أولاده،وجدت بقايا بعض الطعام فى إحدى الحلل لا تكفى صبيًا،أفرغتها فى طبق صغير وقبل أن أغطيه حتى لا يسألنى عنها على العشاء،تذوقت ما بها على طرف لسانى،تخلصت منه بسرعة فهو يصمم على الطهو بطريقة عجيبة- استرشادية كما يسميها – لا ترضى أى إنسان إلا هو و أولاده و ينهرنى إذا حاولت أن أطهو له طعاما شهيًا مثل باقى خلق الله !.

دخلت حجرتى لأغير ملابسى،وجدتها أمام المرآة ترفع خصلة من شعرها بدلال بيد و تلملم أطراف قميصها بل قميصى أنا البيتى الخفيف على خصرها و تحبكه بشدة فيظهر جمال نهديها و دقة خصرها و استدارة ردفيها فى وضع إغراء على ألحان أغنية خليعة تدندن بها،و رائحة (بارفانى) تملأ الحجرة كلها !،فار دمى .

- ماذا تفعلين هنا يا مقصوفة الرقبة ؟!،ألا يوجد حياء ؟!،سأقول لوالدك يجىء ليرى تربية ابنته المحترمة و ..

لم تمهلنى لأشفى غليلى و أربيها و أنا أضع يدى على بطنى و الأخرى على ظهرى من شدة الألم و الجنين يرفسنى بشدة و كأنه - حتى هو- يريد أن ينتصر لها ؛فابتسمت فى شماتة و هى تشير إلى سريرى و أوراقها وأدواتها المبعثرة عليه التى لم أتنبه لها عند دخولى حجرتى .

- لاداعى للغلط يا أبلة ! ! بابا هو الذى قال لى أن آتى إلى هنا لأذاكر لأن حجرتى غير مرتبة .

وهزت كتفيها .

ملابسى كلها فى الغسالة و تحتاج إلى غسيل و مكواة و أنا لست فاضية فلدىّ امتحانات .

اشتد رفس الجنين لى ،كدت أصرخ من الألم،خرجت إليه و أنا أمسك جنبى ثائرة .

- أرأيت بنتك و ما تفعله ؟!،
- اخفضى صوتك و لا ترفعيه ثانية أمامى،البنت لم تفعل شيئًا،أنا الذى أمرتها بذلك فلديها امتحانات.
لم أجرؤ طبعًا أن أقول له كيف رأيتها ؟ و لا أنها غير مهتمة بدروسها كما يعتقد ،و لا أنها تسهر عند الجيران إلى ما قبل مجيئه بقليل و لا خروجها المستمر و تأخرها عن البيت ولا.. ولا ؛فلن يسمع لى و سيحملنى نتيجة أى خطأ يصدر عنها !،كتمت غيظى بصعوبة .
- أنا فى شدة التعب وقد اقترب موعد ولادتى و أحتاج إلى الراحة،إلى من يخدمنى لا من أخدمه أنا .
لستى أول من تحمل و تلد،- احمدى ربنا - قالها باستهانة-،أنا لم أرد أى أطفال فلدى ما يكفينى و الحمد لله .
- وأنا ؟!،أليس لى حق فى أن يكون لى طفل ؟! .
لا أريد أى طفل،على الأقل الآن،لماذا تتعجلين هذا الهم ؟! .
ثم سكت و هو ينظر إلىّ بقرف .
المشكلة مشكلتك أنت !.
- ومشكلتك أنت أيضًا فلم يغصب عليك أى إنسان أو يضربك على يدك حتى تتزوجنى،فتاة تجاوزت الثلاثين – عانس فى نظرك – رغم أنك قد شارفت الخمسين،الصغيرات كنّ أمامك،من منهن كانت سترضى بك أنت زوجًا بعيشتك تلك ؟! و بأولادك الملاعين خاصة مقصوفة الرقبة تلك التى بالداخل؟!.
أنت الذى عليك أن تحمد ربنا،قلت يمكن أن يعطينى ربى ثوابًا على رعايتهم و يعتبروننى أمًا لهم أو أختًا بعد أن فقدوا أمهم،لكن أمهم راحت عند ربنا وارتاحت و أنا التى جئت لشقائى !.
تركته وذهبت إلى المطبخ وأنا لا أتمالك نفسى من البكاء،جلست على الأرض،مددت ساقى و رفعت يدىّ وأنا أشكو همى و ألمى إلى الله و أدعوه أن يخلصنى مما أنا فيه .
سمعت صوت قدميه آتية نحو المطبخ،تحاملت على نفسى و قمت و أنا أنشف دموعى و استغفر الله،لأقصر الشر فهو لا يحب النكد و لن يتأثر بدموعى و لن يحن علىّ مهما فعلت،لقد تعبت فى إرضائه كثيرًا،تخففت من بعض ملابسى و ارتديت مريلة المطبخ،رأيته أمامى .
أعمل لك أنا الشاى ؟ .
- نعم و اعملى لنفسك إذا أردتى .
- أنا لم أتناول طعامًا حتى الآن .
كاد يسألنى و لماذا لم تأكلى شيئًا فى العمل ؟! ولكنه نظر إلى الطبق الصغير و رفع غطائه،يمكنك أن تأكلى هذا،قالها و هو ينظر إلى ذراعىّ العاريتين البضتين و يتحسس كتفى المستديرين مقتربًا منى،أو تصنعى طعامًا خفيفًا،يوجد فول و بيض فى الثلاجة .
لم أستجب له رغم نوبة الكرم المفاجئ وتشاغلت بعمل الشاى فاقترب أكثر.
أنا متعبة اليوم و المطبخ كما ترى !.
- اتركيه لى .
- لا،اغتصبت من نفسى ابتسامة خفيفة،أزحت يديه برفق،لا يمكن،أتتعب نفسك و أنا موجودة ؟!.
أخذ كوب الشاى و تركنى بعد أن تأكد من أنه لا فائدة،بدأت أدعك المواعين و أنظف المطبخ إلى أن انتهيت منه وأنا فى قمة التعب و أشعر بشدة القرف والضيق،أيتعمد إهانتى و القسوة علىّ ثم يريدنى ؟!،وبخله هذا الشديد فى كل شىء،لم يشعرنى يومًا بأننى امرأة لها مشاعر و كيان،يهتم بسعادته هو فقط وسعادة أولاده،حاول وأد لهفتى على الإنجاب قبل أن يفوتنى قطاره .
- لاداعى له الآن،ظروفى لا تسمح،أريد أن أستمتع و أعيش و أشعر أننى زوج،لا تشغلى بالك به من الآن،الأيام أمامنا و العلم تقدم .

أية أيام ؟،لم أفهم أياً من تصرفاته،يقبل علىّ أيامًا و ينصرف عنى أخرى عندما أحتاجه و أشتاق إليه يقاومنى رغم شدة رغبته فىّ،أطعته فى كل صغيرة و كبيرة،أعطيته حبى،اهتمامى،راعيت الله فى أولاده،حاولت إسعاده كما يريد،يمتص رحيقى بلذة و لا يفكر فىّ لحظة،المهم سعادته هو و أولاده فقط ! .

لمّا تأخر حملى استشرت صديقة،سألتنى بعض الأسئلة،خجلت،أجبتها بصدق،ربتت على كتفى بإشفاق و أجابتنى :

- لقد استغفلك يا ابنتى،إياك أن يفوتك القطار! .

شاء الله أن يمن علىّ بنور الحياة،أسمعنى الطبيب دقات قلبه،رقصت من شدة الفرح كفراشة سحرها الأمل،طوّقت عنقه و بشرته،أظلمت الدنيا فى عينيه،أزاحنى بعنف !.

- أتخدعيننى أنا ؟!،كيف ؟!،أتمثلين الطيبة و البراءة ؟!،لا أريده!،إما أنا وإما هو !.

تركنى حطامًا و خاصمنى فترة فلم يعطنى أى مصروف للبيت،تكفلت أنا به و بأولاده،تفانيت فى خدمتهم و تحملت نظراتهم إلىّ بقرف،سوء أدب باستفزازهم المستمر لى عسى أن يفيق للحق ويتراجع،من أجل ما فى بطنى،حتى لا أفشل،أكره أن أحمل اللقب السىء مطلقة و على صدرها طفل أيضًا كما حملت من قبله لقب عانس رغم جمالى الملحوظ .

شهر طويل سقت إليه من أعرف و من يعرف إلى أن عاد،عاد مع أول الشهر،وقد نجحت فى الاحتفاظ بنصف مرتبى الهزيل بأعجوبة من أجل مصاريفى و مصاريف العلاج ومتابعة حملى والإعداد للولادة و..

وعلى أن أدفع فاتورة التليفون الذى يستخدمه هو و أولاده ليلاً نهارًا – هذه المرة فقط – و سيتكرم علىّ بأن يجعلنى أدفع نصفها فقط دورياً فيما بعد وعليّ أن أستاذنه إذا أردت استخدامه من أجل النظام فقط !.

- كيف ؟!.

- تصرفى لا تضيعى أى فرصة (للأفرتيم)،لا تتغيبى عن عملك دلالاً وكسلاً بحجة التعب حتى لا تضيع الحوافز .

- وأنا حامل ؟! .

- رجعنا للموال القديم!،هذا شرط .

وافقت و أنا كلى أمل أن يتنازل عن شرطه هذا عندما يشعر بشدة تعبى و حبى له و تفانىّ فى خدمته و خدمة أولاده،لكنه كان قاسيًا فى شرطه قاسيًا فى تنفيذه،إنما رحمة ربنا و إرادته فوق كل شىء،فقد ثبت حملى والحمد لله رغم شدة إجهادى ،ضربى بسبب وبدون سبب ،استفزازه المستمر لى حتى يتكفل غضبى وانفعالى الشديد و ثورتى أحيانًا - التى أخفيها دائمًا فيكتشفها ويتجاهلنى - بإجهاضى دون تدخله !،ثم يأتي بعدها لمصالحتى ومراضاتى،يريدنى زوجة محبة،مطيعة،مخلصة دون أولاد !،راضية بعيشته،لا تكلفه شيئًا و فى نفس الوقت تخدمه و تخدم أولاده و ترعاهم وتساهم فى مصروف بيته،أما المقابل فلا شىء ؛ يكفينى فخرًا لقب زوجة،زوجة الأستاذ عبد الكريم !،يمتص حنانى،شبابى،صحتى،و قبل ذلك كله مالي،لا يكون وديعًا هادئًا إلا إذا أخذ و أخذ أولاده من قبله !،أرضى و لدىّ الأمل فى أن يلين ويهتم بى،يعطف علىّ،يكون لى زوجًا حقيقيًا،سأصبر الآن و أتحمل من أجل نور الحياة الذى حلمت به ليخرج من بطنى يجد له أبًا وأسرة سوية تسقيه الحنان،يثبت وجوده بينهم .

خفت أن أزعجه أو أزعج أحدًا من أولاده لتعبى هذه الليلة،أخذت غطاءً خفيفًا لأنام على الكنبة فى الصالة،نمت نومًا عميقًا أفقت منه على طلقات فى جنبى و ظهرى جعلتنى أصرخ بشدة،استيقظ فزعًا هو و أولاده،

- أهذا يومك ؟!،أليس مبكرًا عن موعده ؟! .

- الحقنى بسرعة،آه،سألد الآن،أحضر تاكسيًا حالاً و انقلنى إلى المستشفى .

هرش رأسه و ذقنه غير الحليق .

- و ما فائدة عربات الإسعاف إذًا ؟! سأتصل بهم و هم يعملون اللازم .

- لا أستطيع الانتظار،هناك شىء ينزل منى،الحقنى .

اشتدت صرخات الألم وطلقاته جاء على إثرها الجيران فحملنى أحدهم مع زوجته فى عربته إلى المستشفى ؛ هنا فقط جاء معهم لأنه لن يتعب فى أى مواصلات،تركنى مباشرة بعد أن اطمأن لدخولى (كشك الولادة)،لم ينتظرنى

حتى أخرج هربًا من أن يطالبه أحد بأى مصروفات و لو حتى (حلاوة المولود و قيام الست بالسلامة) بينما ظلت جارتى و زوجها معى حتى بشرانى بـ (كريم)،و قاما بكل اللازم من أجلى و من أجل طفلى،و عادا بى إلى بيت أمى حيث الراحة والأمان،أما هو،زوجى !،فلم يزورنى إلا مرات قليلة اهتم خلالها بالتأكد من أننى لن أمد إجازة وضعى أكثر من ثلاثة أشهر فقط لا غير لأنها مدفوعة الأجر من المصلحة التى أعمل بها و أوصانى بألا أقيم لطفلنا (سبوعًا) لأنه لا يؤمن بهذه الخرافات ! .

لم يحمله بين يديه أويقبله،حتى بعد أن ابتسم له ابتسامة تشرق لها السماوات،أظلم وجهه فقد اعتقد أنه إن فعلها فسيكلفه ذلك أجرًا أو على الأقل نقوطًا !،لا سامحه الله .

طلب منى توكيلاً حتى يستطيع أن يقبض راتبى نيابةً عنى حتى يريحنى من تعب المشوارو لأستكمل (نفاسى) فى بيت أمى واسترد صحتى من رعاية أمى المريضة صاحبة المعاش القليل و من طعامها و ما تدفعه من أجلى و من أجل طفله من مصاريف ! .

صرخت فى وجهه طلقنى،طلقنى،كرهتك،كرهت عيشتك و بخلك ..

و أنا أقذفه بكل ما طالته يدىّ من أشياء.

بخيل،أبخل من البخل نفسه،خسارة فيك ابتسامة طفلى أو لمسة منه .

وقف أمامى مذهولاً !.

- أبعد كل ما قدمته إليك ؟!،اهدئى،أنت مازلت متعبة من أثر الولادة.

آثرتنى برودته الشديدة و كأنه يخشى على أعصابه فيوفرها،قذفته بزجاجة البرفان بجوارى فأوجعت رأسه،مد يده يتحسسها من الألم وهمّ ليهجم علىّ و يضربنى،وقعت عيناه على الزجاجة لم تنكسر فمد يده و أخذها،نظر إليها وتشممها،وضعها فى جيبه و على وجهه ابتسامة،اشتد غيظى،سمعت بكاء ابنى كريم من الحجرة الأخرى،جريت إليه،احتضنته،قبلته،هدهدته،سرت فى أعصابى راحة و هدوء،ابتسم لى،شعرت أنه دنياي التي أعيش من أجلها،لا أريد أن يتعذب بين أم مقهورة و أب بخيل.

التفت إليه بثبات ،ولأول مرة أصوب عيني في عينيه.

- خسارة فيك أن أطلب منك طلاقًا،سأخلعك ،و لأكن لابنى،و ليكن كريمًا.

****

أمنية

عيناه علامتا استفهام وعلى وجهه شبح ابتسامة علقها ذات مرة و نسيها،لا تلمع إلا إذا انكشف أمامه غموض ما أو لفت انتباهه شخص ما فى الطريق،العمل،القهوة،فيتبعه عن طيب خاطر كأنه مسوق وراءه،لا يتحدث إلا قليلاً بصوته الهادئ المهذب بعد أن يثير من أمامه بعينيه المتسائلتين و نظراته المتمعنة و ابتسامته المشجعة بسؤال أو كلمات تحتاج إلى نفى أو تأكيد،يدفع من أمامه دون أن يشعر إلى الاسترسال فى الكلام بشهية المتعب الذى لا راحة له إلا فى الإفضاء بكل ما داخله ؛ فيتناوله منه تناول الطيب المتفهم فى رقة .

ربما هذا ما لفت أنظار زوجته إليه قبل الزواج وهى الفتاة الجميلة اللبقة التى لا يعجبها اندفاع الشباب و طيشه،ترى الرجولة فى الرزانة والهدوء ؛فوقعت فى شباك نظراته التى تلاحقها أينما ذهبت،ظنتها نظرات إعجاب بل وله دونه الحب،ابتساماته التى تلمع كلما وقعت عيناه عليها،أيقنت أنها السعادة التى ليس بعدها سعادة،لاحقها مرة بعد أخرى،تمنعت فى حياء،ذاق إجاباتها المختلطة بعبير أنوثتها فانتشى،شعر أنه على أبواب كنز كبير يكاد أن يفتح،لم يجد أفضل من الكلمة السحرية التى تفتح كنوز فتاة مثلها،الزواج !،خاصة و قد مل إلحاح أمه و إخوته عليه و قد جاوز الثلاثين ببضع سنوات .

وفتحت أبواب الكنز !،أذاقته الحب ألوانا،تنفس جمالها وحنانها و رقتها،تعرّف تفاصيل روحها وعقلها،الأماكن التى تحبها،الشخصيات التى ترتاح للتعامل معها،أحس بمدى ملاءمة جميع الألوان بدرجاتها عليها

و الملابس بأنواعها قصيرة،طويلة،ضيقة،فضفاضة،آثار العطور المختلفة على بشرتها و اختلاطها بأنفاسها،تفنن فى هداياه إليها فاعتبرت ذلك دليل حب شديد،أذابت نفسها فيه،لم تخف عنه شيئًا مما فات،مما تفكر فيه أو تحلم به،مما رأته،مما لم تره،مما تعرفه،مما لاتعرفه،صارت كتابًا مفتوحًا أمامه بل كتابًا شربه وهضمه حتى أنه يتذكر ما قد تنساه عن نفسها،عملها،أسرتها،أصدقائها،جيرانها،يعرف متى تفرح ؟!،متى ترغب ؟!،متى تتدلل وتتمنع ؟!،متى تغضب ؟!،متى تسر فى نفسها إن كانت تستطيع أن تسر فى نفسها شيئًا دونه !،منحته طفلاً و اثنين،أحبته بكل ذرة فى كيانها و لم تنتظر منه شيئًا،أشبعته حبًا و حنانًا حتى ارتوى،نعم ارتوى منها !،نظر حوله فوجدها أعطته كل شىء و أجابت عن كل ما فى نفسه تجاهها،شعرأن قواه تضعف،لم يعد لديها جديدًا يحركه !،كأن يعرف ماذا ستصنع له من طعام قبل أن تقدمه إليه،ماذا ستقول له اليوم إذا أخبرها عن رئيسه الجديد كثير الأوامر،ما الهدية التى ستختارها لتقدمها لأمه ،ماذا..؟،وماذا؟..،صار يعرف جميع الإجابات إلا إجابة واحدة،كيف يكون حاله هو إذا أحب ؟!.

أحبته لدرجة العشق،أعطته و منحته أما هو فقد أخذ و أخذ،كذّبت إحساسها بأنه لا يحبها معشار حبها له !.

حرك فيها كوامن الحب و الإثارة والبذل و العطاء،بنظراته المتسائلة فى هدوء،ابتسامته المشجعة فى رقة،بهداياه المتدفقة،فأغميت عيناها عن الحقيقة التى تكذبها و تخفيها بين جوانحها !،قلبه بخيل إن كان لديه قلب وهداياه طعم فهو لا يقاوم فضوله واستمتاعه بها،حاولت إغراقه بحبها وعطائها و لهفتها المستمرة عليه،تغاضت عن جرحه المستمر لها ثم اعتذاره و كأنه لا يقصد،كنت أعلم أنك سترتدين هذا القميص اليوم،فتدارى حياءها مرتبكة،بأنها تحب ارتداءه دونما سبب فقد وجدته أمامها أو أنها تحب هذا اللون وتهم بتغييره،فإذا وافق ذلك هواه منعها من تغييره أما إذا لم يوافقه فإنه ينصرف عنها و كأن شيئًا لم يكن !.

قد يطلب منها بنظراته المتسائلة التى تحثها على تقديم المزيد و المزيد بينما شفتيه تكاد تنتهى منهما الابتسامة إلى الأبد،أو ينهاها عن بعض التصرفات التى قبلها منها مرارًا و أشاد بها لأنه ملّ ذلك و عليها أن تبحث عن غير ما اعتاده معها،و أن تغير من طريقة طهوها و زينتها و .. لأنه ملّ حديثها،ثيابها،تصرفاتها،حوّل حياتها سباقًا تعدو فيه و لا تتوقف إلا إذا توقف نبض قلبها !.

اكتفت منه بلحظات الرضا القليلة عما تقدمه له و تصبر عن إعراضه الكثير عنها حتى صارت تشك فى أنوثتها رغم أنها موضع حسد الكثيرات و أمل الكثيرين،فى طهوها الذى يفوق أفخم الفنادق،فى لباقتها التى تجمع القلوب والآذان حولها،وفى..

كلما حاصرها بعينيه المتسائلتين عن المزيد،ثارت أعصابها،كتمت أنفاسها،حتى كادت تسقط شهيدة السعى فى ميدان إرضائه وإسعاده فكف عينيه عنها و صارت ابتسامته شبحًا أحيانًا يظهر إثر مفاجأة ما أو عطاء مختلف أو احتياج عابر سرعان ما يخبو فى هدوء،ابتعد عنها شيئًا فشيئًا و إن استمرا معًا كزوجين بينهما طفلان لا ذنب لهما فى شىء .

انهارت،قذفته بما في قلبها،صرخت ..

- جعلتنى جارية ليس لها أمل فى الحياة إلا إرضاءك،إعطاءك بسخاء،و أنت تتفضل بالأخذ،أغدقت هداياك شراءً لسعادتك،متعتك،أما أنا ؟! ..،لاشىء،لم تحبنى يومًا،بل لم تحاول أن تحبنى يومًا !،و كيف تحب بهلوانًا مسليًا تتمتع بالفرجة عليه فقط ؟! ،لعبة تعرفت جميع أجزائها،كل الصور التى يمكن أن تصنعها ثم زهدتها،جرحتنى جرحت كرامتى حتى ماتت !،لا،لم تمت ،بل لن تموت .

أجهشت بالبكاء وهو واقف أمامها ينظر بعينين ملؤهما الشفقة و الرثاء،ربت على كتفيها،أحاطها بذراعيه كأنه يهدئ طفلة ثائرة ليس هناك أى داع لثورتها و هو منبهر بموقفها هذا،انفعالها،حالتها التى يراها للمرة الأولى فأنعشته.

وجد نفسه يضمها إلى صدره بحنان،استكانت بين يديه لحظات ثم دفعته فى صدره بشدة .

- ليس لك أمان،لم أشعر يومًا بالأمن والاستقرار معك،ربما اعتدتنى و اعتدت كل ذرة فى كيانى بعد أن وهبتها لك عن طيب خاطر،لم يعد لدى جديد لنيلى إحسان استمرارك معى،لو وهبتك روحى لزهدتها بعد فترة طالت أم قصرت،ولتلمست طريقك لشراء جارية أخرى و خداعها،لن أنتظر مثل هذا اليوم.

فرت من أمامه ،انزوت فى آخر ركن فى المنزل و ظلت تهذى وترتعش حتى أغشى عليها .

قابلته بعد سنوات انحنى فيها عوده واشتد بياض ما تبقى من شعره،لم تبخل عليه التجاعيد فملأت وجهه و يديه فلم أعرفه إلا بعد أن شعرت بعينيه المتسائلتين تجوسان فى وجهى حتى استقرتا على عينيّ،سألته عن أحواله و كنزه إشارةً إلى زوجته كما كان يطلق عليها،

- كانت أيااام ! ،لقد أخذت نصيبى،ليتنى ما ضيعتها !.
- أنا آسف،
- لقد منحها الله السعادة مع من يستحقها و شب الطفلان معها حتى صارا رجلين ناضجين ورثا عنها صفاء القلب و عطاءه،أما أنا؟!.

قاطعته أكرر اعتذارى،

- أنا لم أقصد أن أثير أحزانك و ..

نظر إلىّ و على شفتيه ابتسامة ساخرة .

- للأحزان محطات كما للسعادة محطات،لكنى سرعان ما أملّ و ألقى بنفسى فى محطات الحزن .
- مازلت شابًا فالشباب شباب الروح .
- هاها،لقد خبرت الدنيا و النساء لكنى لم أكتف بعد !.
- هل توصلت إلى إجابة سؤالك القديم ؟ هل جرّبت أن تكون محبًا ؟.

هزّ رأسه فى نفى .

- ألم تجد المرأة التى تستحق حبك ؟! أو حتى التى توقعك فى شباكها ؟!.
- كثيرًا ما استشعر المتعة و السعادة مع إحدى النساء،لكنى لم أصل إلى أن أكون محبًا يومًا حبًا حقيقيًا،مازال ذلك يؤرقنى إلى اليوم،لكن أبعد هذه السن ؟!.
- أتمنى لك السعادة من كل قلبى .

تركته و انصرفت و أنا أهمس فى نفسى , أنّى لمن ليس فى قلبه ذرة حب و عطاء لأحد غير نفسه أن ينير الله قلبه بنور الحب ؟!.

****

انتظرونى

أخذت تهدهد أخاها الأصغر و تربت على صدره فى محاولة لإسكاته،(هووووه،هووو) اسكت يا حبيبى،اسكت يا عينى،اسكت .

و الصغير يبكى و يرفس برجليه الصغيرتين مكورًا قبضتيه محركًا ذراعيه المثنيتين ؛ فهوت على خديه تقبيلاً عنيفًا و تقريصًا حتى تحول الصغير إلى صرخة واحدة عالية لا تنقطع،فجاءها صوت أمها من المطبخ .

- اسكتى أخاك يا مقصوفة الرقبة و إلا أسكت صوتك عن الدنيا .

التفتت إليه مرتعبة و قد تقلصت ملامحها .

- أيعجبك هذا يا مقصوف الرقبة،أنت ؟! .

ظللت تهدهده بعصبية شديدة و تضع له الحلمة الصناعية فى فمه،و تدفعها بقوة،و كلما وجد الصغير منها تهاونًا لفظها بصوته الحاد الضعيف مرفسًا بكل ما أوتى من قوة حتى امتقع لونه،زادها المنظر عصبية،نادت أمها ..

- تعالى أرضعى ابنك الذى سيموت من الجوع .

- وأنت ؟!،أليس لك أى فائدة فى هذا البيت ؟!،أسرعى و أعدى لأخيك زجاجة الرضاعة الصناعية كما علمتك إلى أن أنتهى مما فى يدى .

قالتها فى حسم ؛فأسرعت الصغيرة لإعداد زجاجة الرضاعة لأخيها ؛فقد حن قلبها لبكائه الشديد وشعرت بالمسؤلية تجاهه مما شجعها على الوقوف بجوار أمها فى المطبخ و تحمل إهانتها المستمرة لها خاصة نظراتها المشمئزة التى لا تنتهى لجسدها الفائر قبل الأوان بنهديها البارزين و كأنها جريمة متحركة لا حيلة لها فى ظهورها !.

قبل أن تنصرف مدت أمها يدها و أخذت منها زجاجة الرضاعة و سكبت قليلاً منها على ظهر يدها فوجدتها أدفأ مما يجب فنظرت إليها من أسفل لأعلى مؤنبةً .

- من كانت مثلك،تصلح لأن تفتح بيتًا و ترعى زوجًا و أولادًا !.

أعطتها ظهرها و أخذت تبرد اللبن قليلاً و هى تتحسر على حالها،و الصغيرة واقفة دون أن تنبس بكلمة قلبها يدق بشدة،العرق يعم جسدها،تعبث بذيل فستانها لتجفف يديها البائشتين من العرق حتى لا تلاحظ أمها،الخوف يملأها فطالما أمها ثائرة غاضبة – وغالبًا ما تكون كذلك – فجو البيت يكون مكهربًا لا راحة فيه و لا هدوء،التفتت الأم إليها و أعطتها الزجاجة قائلة بهدوء و حسرة :

- خذى يا مبتلاة مثل أمك قبل الأوان أرضعى أخاك جيدًا .

أغرورقت عيناها و هى تحمل أخاها الصغير وتربت عليه و تضمه إلى صدرها بحنان ،لم تنسكب دموعها إلا بانسكاب اللبن فى فمّه بعد أن جلست متربعةً على الفراش وقد أسندت ظهرها ثم رفعت إحدى فخذيها على وسادة ووضعت يدها أسفل رأسه وقربته من صدرها و يدها الأخرى تسند الزجاجة ليرضع فى أمان .

استكان الصغير فى حضنها،هدأت دقات قلبها قليلاً،جفّ العرق من يديها،الحضن الدافىء الوحيد الذى تشعر به حضنه هو !،ظلت كلمات أمها (يا مبتلاة مثل أمك قبل الأوان) ترن فى أذنيها،نظرت فى عينيه وجدته يبتسم و يناغيها منتشيًا،ابتسمت لابتسامته،حاولت مناغاته،وجدت عيناها تشردان إلى حيث كانت تلعب فى المدرسة ذات يوم لعبتها المفضلة تسلق سور سلم الدور الأرضى الأملس بالمبنى الخلفى و التزحلق عليه،

كانت تتباهى أمام الأولاد و البنات بشقاوتها و جرأ تها على ركوب السور مثل الحصان و التزحلق من أعلى بسرعة دون أى خوف و هم يصفقون لها ثم أصرت على أن تركب سور السلم الأعلى وسط تحذير زملائها وانبهارهم،فتشبثت بالسور من جانبيه بذراعيها وساقيها وأنامت صدرها عليه و ظلت تتزحلق و زملاؤها يصيحون و ينادونها باسم التدليل المحبب إلى نفسها سوسو،على إيقاعات تصفيقهم بدلاً من (السِمّاوية) أو (بنت سالم) كما تناديها أمها إذا جاءت فى صف أبيها و لا (بنت ليلى) كما يناديها أبوها إذا فعلت ما أمرتها به أمها و هو عنه غير راضٍ .

كانت سعيدة تحلق لأعلى مع تصفيق الصغار و نغماتهم،يدفعها تشجيعهم و حبهم لها على التفنن فى شقاوتها ؛ فتصمم على إثبات مهارتها مهما كان الثمن،لكنها فى ذلك اليوم وجدت قوتها تضعف،دقات قلبها تتسارع فى وهن،العرق البارد يعم جسدها،ذراعيها وساقيها لم يعد لهم أى قدرة على التشبث بالسور،تماسكت إلى أن استطاعت النزول إلى أسفل بسلام و هى تشعر بالخدر و الرهبة،ظن الأولاد و البنات أن مهارتها قلت اليوم لسبب أو لآخر؛ فخفت تصفيقهم و صياحهم و نادى بعضهم بتغيير اللعبة ؛فقد صارت اليوم مملة رغم أنها حاولت أن تصعد السلم لتعيد الكرّة ثانيةً فلم تفلح،أحزنها ذلك بشدة،توقفت قليلاً بعد انصراف زملائها فلحقت بها صديقتها الأثيرة رشا.

- كفى اليوم،ماذا بك ؟!..

و هى لا تجيب و تعبث بأصابعها فى سور السلم،جلست مقرفصةً تبكى خائفة مرتعشة،تنظر إلى السور تارةً و تخفى رأسها بين ركبتيها اللتين تحوطهما بذراعيها تارةً أخرى،نظرت صديقتها للسور و تتبعت الخط الأحمر الذى يسيل على جانب السور،صرخت.

- ما هذا ؟ !،دم ؟! دم !،أجرحتى ؟!،هيا بنا إلى الحكيمة سأذهب لأقول للميس.

جذبتها من أكمام المريلة و هى تبكى و تستحلفها .

- أقبل يديك،أستحلفك بأغلى شىء عندك،إياك أن تفعلى .

نظرت صديقتها إلى الرعب البادى على وجهها فاحتضنها و ظلتا تبكيان معًا.

- يجب أن تعودى إلى البيت،

- لا أستطيع،أشعر بشىء دافىء ينسكب منى،أنا مرعوبة،لا أس ت ط يع ..أن .. أق ف،على قد مى،

- ماذا سنفعل؟!،هيا إلى الحمام لنغسل الملابس أولاً قبل أن يرانا أحد وبعدها يحلها ألف حلال .

ظلت تبكى طوال الوقت و ترتعش و جسدها الرقيق بارد كالثلج،و صديقتها تدلكه لها و هى مختبئة معها فى حمام المدرسة إلى أن دق جرس الانصراف،و هما تفكران كيف ستخبر أمها بما حدث،فأمها تمنعها من اللعب داخل البيت و خارجه و تحرقها بنظراتها على بعض المواضع الحساسة فى جسدها والتى صارت تكبر يومًا بعد يوم فى غدوها و رواحها؛ فماذا لو عرفت بحكاية السلم تلك و تسلق سوره و أيضًا التزحلق عليه ؟!.

انتظرتا حتى انصرف جميع التلاميذ و جميع المدرسين و قبل أن تغلق البوابة الكبيرة خرجتا متخفيتين و هى تتحامل على صديقتها التى أوصلتها إلى باب البيت،دقت الجرس و هربت مسرعة،فتحت لها أمها الباب فارتمت على صدرها ووجهها غاية فى الشحوب تنتفض كعصفور جريح .

- الحقينى يا ماما،أنا،أنا،.مر ت ع بة جد دًا.

وأجهشت بالبكاء،نظرت الأم إلى ملابسها غير المغسولة جيدًا وآثار الدماء عليها،أزاحتها عنها و ضربت على صدرها .

-(يا مصيبتي) ماذا بك ؟!،من فعل بك هذا ؟!.

شدتها من شعرها بعنف .

- انطقى و إلا ذبحتك !.

زادها الذعر و الإعياء ارتعاشًا و شحوبًا ؛ فخرت على الأرض مغشيًا عليها،حملتها الأم بسرعة و وضعتها فى الفراش و قربت من أنفها قطناً بكولونيا،أغلقت الأبواب و الشبابيك ،رفعت صوت التليفزيون فى الصالة كأنها تخفى فضيحة لا يجب أن يشم خبرها أحد،عادت لترى المصيبة التى وقعت فيها،وجدت الصغيرة قد أفاقت قليلاً،ظلت تحثها على الكلام،تسألها جميع الأسئلة الممكنة و غير الممكنة و البنت تبكى وترتعش وتتهته من الرعب و الإعياء فلا تنطق كلمة،و الأم فاض بها الكيل،و الفراش يهتز بشدة و البنت تحاول أن تختفى داخله فلا يظهر لها رأس و لا قدم و قد ابتل بعرقها و دموعها و دمائها .

حتى بعد أن علمت الأم بما حدث بالفعل للابنة و تأكدت من صدقها لم يهدأ بالها،و كأنه فضيحة أيضًا.

قامت و غيرت لها ثيابها و فراشها،أعطتها شرابًا ساخنًا ،ربتت على كتفها فى حزم و كأنها تلقى عليها مسؤلية جميع بنات جنسها منذ هذه اللحظة،أملت عليها قائمة الممنوعات التى لا تنتهى ؛فكل لحظة يجد عليها جديد يقيد روحها و جسدها حتى دقات قلبها وخطرات عقلها،لا أصدقاء و لا صديقات و إن كان و لا بد،ففى أضيق الحدود صديقة واحدة أختارها أنا،اللعب مع الأولاد حتى البنات ممنوع منذ اليوم المشى بحساب،حتى الضحكة بحساب،العيون ترخى و لا ترفع حتى لا يقولون (بجحة) ليس لها أم تحسن تربيتها،تقليد البنات فى ملبسهن ممنوع،الخروج لغير المدرسة ممنوع،و.. ممنوع،منذ اليوم ستدخلين المطبخ و تخدمين إخوتك فى كل شىء لا فرق بين أوقات الدراسة و الإجازة،أظن كلامى مفهوم و إلا ستعاقبين أشد العقاب،أسمعتى ؟!.

بدأ سجنها منذ هذه اللحظة و ربما منذ عشر سنوات عندما أبلغوا أمها و أبيها أن المولودة أنثى و ليست ذكرًا،كان عليها أن تتعلم الكذب و تتقنه فى براءة و كأنه مثل الهواء الذى تتنفسه و الماء الذى تشربه،ففى أيام

معينة تخفى أمها ملابس الألعاب الرياضية حتى لا تمارس الرياضة وتلعب أثناء الحصص المخصصة لذلك فتدعى أنها نسيتها أو أنها تحتاج إلى إصلاح أو كواء وما شابه ذلك رغم أنها تكون أحيانًا فى أواخر أيامها تلك غير متعبة لدرجة عدم اللعب مع اشتياقها له .

تبرر ارتداءها لغطاء الرأس الأبيض الذى يغطى صدرها و خصرها و جزءًا من ردفيها بأنها محجبة و أن الدين يأمر بذلك مع أنها لا تصلى و تخلعه بعد أيام،و تجيب عن تساؤلات زميلاتها بأنها تتدرب عليه و ستلبسه عندما تكبر رغم أنها لاتدرى عن أمور دينها شيئًا و أمها ترى أنها ستتعلم بنفسها فلا صبر لها على تعليم أحد،تجبرها على ارتدائه فقط لتخفى الزيادة الطارئة فى حجم نهديها فى تلك الأيام حتى لو طفيفة.

أشد ما يؤلمها نظرات الجميع و تفرسهم فى وجهها و عودها،البعض ينظرن إليها بإشفاق لطفولتها المدفونة فى عود فتاة قاربت النضج،والبعض الآخر يغرن من أنوثتها المتفجرة قبل أوانها و يستكثرن عليها أن تلعب و تجرى مع باقى الأطفال فى مثل سنها ،لكن أشد ما يخيفها هذه النظرات اللزجة من بعض الشباب و الرجال التى يركزونها على كل نقطة فى جسدها و يغلفونها بكلام معسول و براءة مفتعلة ولمسات غير مفهومة لا تشعر معهم بأمان خاصة مع تحذيرات الأم منها و تخويفها الدائم لها من اقتراب أى شخص أو محاولة الكلام معها حتى لو كان فى سن بابا أو حتى جدو،أصبحت تخشاهم و تفر من أمامهم بل تكاد تكرههم بعد أن أفهمتها أمها أنهم يريدون إيذاءها .

حتى إخوتها الذكور تضايقها نظراتهم المستطلعة لها فى سخرية و محاولاتهم خبطها أثناء لعبهم و مزاحهم على أى موضع من جسدها و كأنهم لا يقصدون خاصة على صدرها الناهد و تقليدهم خطواتها و حركاتها و صوتها الذى يجمع بين الطفولة و الأنوثة فى صورة مهزوزة،مما شتت عقلها وشعورها تجاه جسدها ونفسها و كل كيانها حتى أضيف إلى ألقابها التى تكرهها و إن كانت تجاريهم و تظهر أحيانًا أنها لا تتضايق منها حتى لا يتمادوا فى مضايقتها لقب (أراجوز البيت) ينادونها به استخفافًا يغمى عينيها عن الإحساس بجمالها الذى لا تخطئه العين،ماعدا أخوها الصغير الذى يبتسم عندما تناديه (كوكو)وهى تقلد أصوات الطيورالمغردة .

لفظ الصغير الحلمة الصناعية التى يرضع بها رافعًا صوت مناغاته بعينين ملؤهما الشقاوة بعد الشبع،سكنت هدهدتها له وهوت تقبله بشقاوة و حنان و تداعبه فى وجهه بأطراف شعرها الناعم الطويل و الصغير يتمايل ضحكًا و يرفس برجليه فى سعادة و يعبث بأنامله الغضة فى صدرها و كأنها أمه يتلمس منها الدفء و الحنان ،خطر لها أن تضعه على صدرها و تفك أزرار بلوزتها مقلدة لأمها و ترى ما يفعل بدلاً من عرائسها الملونة الجامدة التى صارت تزهدها،أعجبتها اللعبة و مداعبات (كوكو) وأنامله الرقيقة التى تأخذها بين شفتيها فى حنان تارة و تارة تتركها ليعبث بها فى وجهها وشعرها كيفما شاء،احتضنته فى حنان ووقفت به أمام المرآة،تلمس (كوكو) بشفتيه صدرها الصغير المكور حتى إذا ما وصل إلى قمته تشبث بها بكل ما أوتى من قوة و ظل يمص و يمص فى بهجة بريئة على إيقاع دقات قلبها ثم يكف عن المص و يناغيها مبتسمًا و يتمسح بصدرها ثم يعود للمص منتشيًا وهى تشعر بخدر لذيذ و سعادة تملأ نفسها .

أخذت تدور حول نفسها بحركة راقصة و الصغير بين ذراعيها مستكين فارتفعت ضحكاتهما الرقيقة و انغمسا فى مناغتهما و مداعبتهما البريئة قد سكرا حبًا و حنانًا،حتى شعرت البنت بخبطة شديدة على ظهرها وبمن يشد شعرها بعنف،التفتت،وجدت أمها أمامها،شهقت من الخوف وقد اصفر وجهها و هى لا تدرى أألقت بأخيها الرضيع على الفراش أم أن أمها انتزعته منها ؟!.

- أجننتِ يا بنت ؟! لماذا تستعجلين هذا الغلب ؟!،و الله لئن فعلتى فعلتك تلك ثانية لأقطمن رقبتك و..

قبل أن تتم الأم كلامها و هى متحفزة لصفعها كانت البنت قد فرت من أمامها فلم تلمسها الصفعة القوية التى هوت بها يد الأم على وجهها وأصابت الدولاب بدلاً منها ؛فآلمتها واغتاظت بشدة مما جعلها تدعو عليها بالشر فى تصميم شديد على عقابها،جرت البنت إلى الحمام و أغلقت عليها بابه من الداخل و صراخ أخيها الصغير يصم أذنيها و شتائم الأم و تهديداتها تزيدها فزعًا واضطرابًا،فتحت صنبور الماء لآخره،أخذت تدق فرش الأسنان فى الحوض،و تفرغ دلو الماء فى البالوعة و تخبطه فى الحائط فيحدث صوتًا عاليًا و تدق به الأرض فى عنف حتى لا

تسمع أى صوت يأتيها من الخارج،حاولت أن تصم أذنيها بإدخال أناملها فيها،لم تستطع أصابعها المرتعشة إغلاق أزرار بلوزتها جيدًا،نزعت منشفة الحمام و لفتها حول جسمها،قلبت طبق الغسيل على الأرض و شدت منه ما استطاعت من ملابس مبتلة و غطت بها نفسها من رأسها لأخمص قدميها و انكمشت أسفل الحوض تبكى و تنتحب،و أمها خلف الباب تهددها و تتوعدها إن لم تفتح الباب بنفسها و تخرج بسرعة ستكسره عليها و تدخل تضربها و كلما سمعت البنت ذلك ازداد صراخها و بكاؤها حتى انقبض قلب الأم لفشلها فى إخراجها من الحمام و إجبارها على الامتناع عن البكاء و الصراخ بالقوة كعادتها الناجحة معها دائمًا فأخذت تتوسل إلى البنت و ترجوها أن تهدأ و تخرج بسرعة خوفًا من الجان الذين يسكنون هذا المكان فلربما لبسها أحدهم .

دخل الأب الشقة مهرولاً بعد أن سمع الصرخ أثناء صعوده السلم و هو راجع من عمله،لمح فى عينى الأم نظرة خوف وهى تتوسل إلى البنت .

- ماذا فعلتى فى البنت ؟،قلت لك مائة مرة البنت صغيرة على هذه القسوة .

سارعت الأم فى عنف و قد آلمها أن يرى زوجها فى عينيها نظرة الانكسار و الضعف .

- أنت الذى ستجنى عليها بطيبتك الزائدة،مقصوفة الرقبة هذه لن يؤدبها أى عقاب إلا كسر رقبتها،اكسر للبنت ضلعًا يطلع لها أربع و عشرون .

- غوري الآن و آتينى بشاكوش أو حتى يد هاون أو أى شىء،البنت ستضيع منا،أنت السبب .

آثرت السلامة و نفذت ما أمرها به بهدوء حتى لا يتمادى فى شدته التى لم تتوقعها منه ؛ فهى الآمرة المنتصرة دائمًا .

حاول معالجة الباب إلى أن تأتى بكتفيه و يديه و هو ينادى على ابنته بكل أسماء التدليل التى تحبها و يحاول تهدئتها و طمأنتها أنه لن يمسها أحد بسوء طالما أنه على قيد الحياة .

فتح الباب،و أخذ ابنته فى حضنه و غمرها بقبلاته و البنت متشبثة به فى قوة تكاد تخترق ضلوعه ترجوه ألا يتركها أبدًا،حملها إلى فراشها و خلع عنها ملابسها المبتلة بنفسه،جفف جسدها الغض الفائر بحنان،ألبسها ملابس خفيفة بصعوبة وهى مختبئة فى صدره متدثرة بغطاء السرير و ظل يربت على كتفيها و يمسح شعرها و هى محتمية بصدره إلى أن داعب جفونها النوم فنامت و انسل هو من جوارها .

بعد الظهر دخلت الأم حجرة البنت و ظلت بها رائحة غادية ترتب بعض الأشياء محدثة ضوضاءً خفيفة حتى تستيقظ من تلقاء نفسها دون أن يبدو على الأم أنها جاءت لإيقاظها و مصالحتها فقد داخلها الشك أن البنت ستستغل لين أمها و تفعل ما تريد و ينفلت زمامها وفى نفس الوقت خافت أن تنحاز البنت لأبيها و يضيع تعبها و شقاؤها،فلمن تحملت إذن كل هذا الغلب و العذاب إن لم يكن من أجل أبنائها ؟!.

استيقظت البنت على صوت الأم ثم عادت و أخفت وجهها تحت الغطاء متنا ومةً حتى تخرج الأم من الحجرة ؛فقد خافت أن تنفذ تهديدها،تنبهت الأم لهذه الحركة التمثيلية و كلمت البنت و سألتها عن أشياء عادية كأن شيئًا لم يكن،تشجعت البنت و أملت أن يكون مزاج الأم معتدلاً فى هذه اللحظة حتى لا تعنفها على أى شىء فجلست على فراشها و أسندت ظهرها إلى الوسائد و قد ضمت ركبتيها إلى صدرها بذراعيها و أخفت جميع جسدها بغطاء الفراش فلم يبد منها غير عينيها و شعرها المعقوص للخلف فى ضفيرة كبيرة،تحسست البنت رأسها من أسفل حيث بداية الضفيرة التى تشدها أمها منها دائمًا و كذلك إخوتها مما يسبب لها دوارًا خفيفًا و صداعًا أغلب الوقت .

- قومى،قومى بلا كسل،ليتك تكونين مثل البنات المؤدبات و تسمعين كلامى و لا تتعبين قلبى معك،وتلون صوتها بتهديد مغلف بلين .

- على الأقل ستعفين نفسك من غضبى و عقابى .

لم ترد البنت وبدأ قلبها يدق بشدة و هى خائفة مما قد يجره كلام أمها عليها؛ فلم تتركها الأم لأفكارها .

- أنا أمك أخاف عليك و أعرف مصلحتك،لماذا تستعجلين الغلب والشقاء ؟!،خذى شهادتك أولاً،ثم العمل،يجب أن تعتمدى على نفسك جيدًا حتى لا تحتاجين لأحد يخدعك بكلامه المعسول فتتزوجيه و يضيع شبابك و جمالك ومالك فى خدمته هو و أولاده،و ماذا ستكسبين بعدها ؟!،لا شىء،لا تكونى ساذجة مثل أمك تعمل كالطاحونة ليلاً و نهارًا

داخل البيت و خارجه،ليس من حقها أن تهنأ بمليم واحد من شقائها،وبدون كلمة شكر واحدة !،إياك أن تعودى لفعلتك تلك و لا لغيرها .

أرادت البنت أن تستدر عطف أمها أكثر فهى تحبها جدًا عندما يكون مزاجها هادئًا نوعا ما - و هذا نادرًا ما يكون – و تجلس لتتحدث معها دون صراخ أو عنف .

- أصحيح يا ماما أن الجان يسكنون الحمام ؟! يعنى العفريت يمكن أن يكون قد لبسنى ؟!.

كبرت الأم و استعاذت بالله من الشيطان الرجيم ومن الجان جميعًا و خدامهم و هى تدور بعينيها فى كل أرجاء الحجرة و تشيح برأسها ويديها بقوة و تقول : بعيد،بعيد .

- و ما المانع؟!،ألم يلبس الجنى شوشو بنت خالتى ؟!.

- الله الحفيظ،يا ستار يا رب،بعيد يا رب بعيد .

و أخذتها فى حضنها وهى تحرك أصابعها و كأنها تنثر ماءً ثم وضعت يدها على رأسها ترقيها بسورة الإخلاص و المعوذتين،و البنت تضحك فى نفسها بشقاوة و استمتاع بحضن أمها الذى غالبًا ما تضن عليها به فقد عرفت كيف تحوذه ،حاولت استغلال اللحظة فطلبت من أمها راجيةً فى انكسار أن تسمح لها باللعب مع بنات الجيران،نظرت إليها أمها من أعلى لأسفل و ركزت نظرها على نهديها المكورين و ردفيها اللذين يميلان للاستدارة و الامتلاء،هزت رأسها موافقةً فى حسرة و هى تتمتم .

- اليوم أفضل من غدًا،هذا نصيبك يا بنتى .

سكتت الأم برهة منعت نفسها فيها بصعوبة من التراجع عن موافقتها.

لكن اسمعى !،اهتمى بنفسك،إياك و اللعب مع الأولاد،العبى مع البنات فقط مفهوم ؟!،لا تكلمى رجلاً غريبًا و لا قريبًا،إياك أن يلمسك أحدهم أو يربت على كتفيك أو حتى يمسح شعرة واحدة من رأسك و يقول لك أنت مثل ابنتى ومثل هذا الكلام،وإياك ..

- حاضر يا ماما حاضر،كفى،دعينى أجهز نفسى للعب .

- البسى(البودى) الذى آتيتك به أسفل ملابسك .

الحر شديد يا ماما،و هو ضيق جدًا .

قلت البسيه حتى يضم جسمك جيدًا فلا يهتز منه أى جزء ولا يبدو منه أى شىء،مفهوم؟.

جاءها صوت تعارك أبويها المعتاد،ملأ أنفها العطر الرجالى الذى يضعه والدها،جرت إليه،أعجبتها ملابسه و أناقته .

الله،كأنك عريس يا بابا،

- أترى حتى البنت مقصوفة الرقبة ؟!،كل هذا بمالى و شقائى يا ظالم ..

احتدمت المعركة اليومية،أسرعت و أغلقت باب الشقة قبل أن تغير الأم رأيها و ذهبت لتلعب مع بنات الجيران اللاتى أطلقن صيحات الترحاب فى سعادة ؛فقد اندهشن لأنها رجعت تلعب معهن،سألنها كيف سمحت لها أمها باللعب معهن ؛ فصوت عراك أمها مع أبيها وإخوتها و كذلك معها ياتيهن من المنور و يصل إلى الشارع خاصة عندما تضربها أمها بشدة و تتمادى فى سبها و عقابها اليومى لها هى بالذات،رغم تعاطفهن الواضح معها اليوم إلا أن ريم التى تغار منها دائمًا و تغيظها بتدليل أمها لها سألتها عن العلقة الساخنة التى لابد أن تكون قد أكلتها اليوم فصراخها و بكاؤها قطع عليهن اللعب هذا الصباح،شعرت بإهانة كرامتها أمامهن فتحدثت معهن من أعلى و كأنهن بنات تافهات أصغر مما يجب لكنها تتواضع بلعبها معهن،أعجبتها نظرات الانبهار فى عيونهن لطولها الفارع و جمالها الذى يزداد يومًا بعد يوم،التفتت حولها و سألت سها عن أخيها فأجابتها بأنه ذهب ليلعب مع الأولاد الكرة فابتسمت فى خبث،لم أقصد ميدو الصغير،أين أبيه أحمد الكبير ؟!،راحت صديقتها تقص عليها كل شىء عن أخيها متباهيةً بوسامته و رجولته و ثيابه وكليته التى التحق بها،وهى تعبث بشعرها الحريرى اللامع- حتى حلت ضفيرتها- و تثنى جيبتها لأعلى وتفك أزرار بلوزتها و تجيب نظرات صديقتها بأن الحر شديد فظهر جسدها المعلن عن أنوثتها و جمالها .

لمحها الشاب الصغير من بعد،تشاغلت عنه باللعب والحديث مع صديقاتها وهى تظهر مفاتنها فى كل حركة،و كأنها لا تقصد فتمادى فى نظراته إليها،اتجهت ناحيته كأنها تريد شراء حلوى من المحل الذى على الناصية،نادتها صديقاتها.

إلى أين ؟!،أنت لم تقولى ماذا تريدين أن تكونى عندما تكبرين ؟،أكنتى شاردةً عنا ؟.

ابتسمت فى خبث قائلةً : انتظرونى .

ومضت فى طريقها.....

****

بساريا

ظل يمشى حتى كلت قدماه،يحرك يديه كمن يناقش شخصًا أمامه،يضرب كفًا بكف وهو يتمتم (ملعون أبو الدنيا التى تجعلنا نعيش مثل هذه العيشة)،اتكأ بكوعه على سور الكورنيش واضعًا رأسه بين كفيه،رفعهما،أثاره السحاب الأبيض اللامع بضوء الشمس فى مثل هذا الصباح الشتوى،ظلل بيديه على عينيه قليلاً ثم أزاحهما،أعجبه منظر النيل ومياهه المترقرقة يداعبها النسيم .

أيا ربى،كل هذا الجمال والنعيم و لا أجد ما أستر به بناتى !،أبعد هذه الشيبة وهذا الشقاء! !،حتى ابنى الوحيد شارف الأربعين من عمره و لم يستطع أن يكون له بيت !،حكمتك !،سقت من أعرف ومن لا أعرف وصلّيت و دعوت حتى عيّن،فرحت و فرحت أمه فقد صار لنا ابن موظف،ابن موظف !،آه لو كنا نعلم !.)

أخذ يذهب و يجىء فى نفس المكان رافعًا رأسه إلى السماء مع يديه و كأنه يتمنى أن تنزل قطعة السحاب هذه أو تلك فتصنع بيوتًا مضيئة يستر فيها بناته ويزوج ابنه ويتمسح فى هذا الجمال والسعة عسى أن يصيبه منهما شىء فى حياته،ثم يضرب كفًا بكف،حكمتك يا رب !،حكمتك !.

(ملعون أبو الدنيا التى تجعلنا نعيش مثل هذه العيشة)

رأى صياداً عجوزًا فى قارب تعاونه صبية فى عمله،كلما ألقى شبكته و سحبها تخرج شبه خالية إلا من البساريا والأعشاب وما لا قيمة له،ضحك فى نفسه و هو يخبط على سور الكورنيش ويخاطب الصياد و كأنه يسمعه .

- يا عم روّح كفى تعبًا !،كان غيرك أشطر،هاها،رزقك اليوم كله بساريا،رفع صوته و هو يشير للعجوز أن يترك عمله،رزقك اليوم كله بساريا،ثم تدارك نفسه وقد شعر بنظرات من حوله فى الشارع،فحك ذقنه غير الحليق وساوى شعره الرمادى،عدّل رابطة عنقه ..

ماذا بى ؟!،أتركهم يقولون أنى جننت ؟!.

قعد على أقرب مقعد حجرى،وجد بجواره كهلاً جاوز الخمسين من عمره فى ملابس رثة لكنها نظيفة،جالسًا فى هدوء واستكانة أمامه صندوق به مناديل ورقية و حلوى وهدايا بسيطة،أشفق عليه فأخرج من جيبه نقودًا ليشترى كيسًا من المناديل و أشار للرجل أن يحتفظ بالباقى وهو يتمتم (بساريا،يبدو الرزق اليوم كله بساريا)،راعى ألا يحرك شفتيه هذه المرة حتى لا يظن به الرجل الظنون،لكن الرجل ناوله الكيس ولم يأخذ منه شيئًا وهو يقول :

- مستورة والحمد لله،ثم مبتسمًا،ليست بساريا .

واتسعت ابتسامته وهو يضع يده على كتفه فى ودّ ليزيل ارتباكه .

كنت أرقبك منذ مجيئك،والله أنت رجل طيب،الأمر لا يستحق كل ذلك،ملعون أبو الدنيا،هاها،أنت تستحق أفضل عيشة وهذه أمرها سهل جدًا !،لا تحمل همًا طالما العبد لله معك .

فجاراه فى الابتسام .

- يا أخى انصح نفسك ! .

وصمم أن يعطيه ثمن كيس المناديل.

- لا أظن لديك ما يكفيك،يبدو أنك لست معتادًا على هذه البهدلة .

- بهدلة ؟!،أنا موظف مثلك،هذا لبس الشغل،ما أكسبه أنا فى يوم تكسبه أنت فى شهر !،قل لى كم معاشك؟،ملاليم!،بساريا يعنى،تعالى معى وأنت تأكل الشهد والجمبرى والكافيار أنت وعائلتك كلها حتى تزهدوهم .

- أنت تمزح ؟،وهل تجارة أكياس المناديل و خلافه سوى نواة تسند زير المرتب المائل ؟!،والله هذه بهدلة لا تستحق،إلا إذا كنت تخفى وراءها تجارة فى الممنوع مثلاً .

- حد الله بينى و بين الحرام،أنا أتاجر فى عطف الناس وشفقتهم و رغباتهم،أنا لا أقبل أن أكون شحاذًا أبدًا،أبعد هذه الشيبة أهين كرامتى ؟!.

أنا لا أسأل أحدًا أى إحسان إنما أنا أتاجر والتجارة شطارة،أغلب من يأتون إلى هذا المكان هم الشباب من الجنسين خاصةً عندما يريدون أن يلتقوا،وهم يحبون التسلية والترفيه بالقليل الذى فى أيديهم وكل شاب يريد أن يبدو عطوفًا كريمًا أمام حبيبته وربما تكفيرًا عن لمسة يد أو قبلة خاطفة،وهم يدفعون سعداءً .

انظر تجمع السحاب فى السماء !،لقد اختلف الجو عما كان عليه منذ ساعة،هكذا الشتاء،يبدو أنها ستمطر،لكن هؤلاء الشباب من حولك المتناثرين على المقاعد الحجرية و المتكئين على سور الكورنيش و الغادين والرائحين و،لن ينصرفوا حتى لو أمطرت و أرعدت وسيزيد التصاق كل منهم بالآخر و مناجاته لحبيبه،هؤلاء هم زبائنى الدائمون،و غيرهم كثيرون .

لو أردت أن تعيش مستريحًا وتستر بناتك وتزوج ابنك وتغدق على زوجتك بالهدايا و لربما أردت أن تتزوج أنت أيضًا مثنى وثلاث ورباع مثلى - قالها وهو يشير لصدره بزهو- فالأمرسهل !،كن تاجرًا وكل تاجر يجب أن يفهم فى تجارته،بع زبائنك إحساسهم بالإحسان،بالكرم،بالسعادة،بتكفيرهم عن آثامهم الصغيرة،لاتضيّع وقتًا .

وأخرج من أسفل مقعده صندوقًا آخر به نفس بضاعته وأعطاه إياه قائلاً :

- اذهب إلى آخر الكورنيش واجلس كما أنت فى صمت و هدوء،لا تتطلع لمن حولك فتؤذهم بنظراتك،هيئتك ليست بطالة و إن كانت أفضل منى فأنت تبدو عجوزًا هدك الفقر،ملابسك مناسبة ولن تضطر لطلب إحسان فهم سيأتون إليك برغبتهم،لا تسارع برد باقى ما يدفعونه من نقود ؛بل قلّب فى جيوبك كلها و ادّع أنك تبحث عن (الفكّة) فى إصرار وادع لهم بما يشتهون،لن تجد فى ذلك مشقة،ولنلتق آخر النهار فى ذات المكان لنرى ماذا فعلت؛ فقد تتفوق علىّ و تنسى حكاية البساريا تلك،اذهب الآن،لا تضيّع وقتًا .

- ولكن ..

- ليس هناك لكن ؛ فأنت لست متسوّلاً بل أنت تاجر،هاها،أبناؤك يحتاجونك،لم يعد فى العمر الكثير،هيّا .

انصرف من أمامه فى تسليم،ما أن وصل إلى نهاية الكورنيش كما اتفقا وجلس على مقعد حجرى و أمامه بضاعته حتى كان جيبه قد امتلأ نقودًا،شعر بالحرارة تدب فى أوصاله رغم شدة برودة الجو و رذاذ المطر المتناثر.

انهمر المطر،صفقت الريح،وجد فتى وفتاة متلاصقين على المقعد المجاور يتناجيان،لا يلتفتان لشىء وقد غابا عن الدنيا من حولهما،وكأن شدة برودة الجو قد زادت مشاعرهما تأججًا وحرارة.

انتهى المطر،أشرقت الشمس قليلاً وصفا الجو،قام الفتى إليه و أخذ منه بعض الحلوى و أعطاه نقودًا أكثر من ثمنها و لم يسترد الباقى مبتسمًا وانصرف عنه و قدمها لفتاته لاثمًا يديها فى رقة،نظر إليها وجدها ابنته !.

****

سعادة

لمحته عن بعد فلم تستطع أن تمنع عينيها من النظر إليه،أبطأت قليلاً حتى تتمكن من متابعته رغم قلقها من التأخير عن عملها،كان جالسًا القرفصاء على إحدى الأرائك عند نقطة حريق العمرانية بجوار الكوبرى الجديد مستندًا بذقنه المهوش على ذراعيه المعروقتين،شعره منكوش بادى الاتساخ كملابسه،نظرات عينيه حزينة تفضح هم السنين و قسوتها التى لم ترحم شيخوخته و ضعفه فألقت به فى عرض الطريق دون مأوى .

قفزت إلى الأتوبيس وهى لا تدرى سر انجذابها لهذا العجوز الذى لا يختلف عن غيره من المشردين الذين يتسكعون فى الطرقات أو يفترشون الأرصفة إلا بعينيه اللتين تقولان شيئًا لا تستطيع تفسيره،فى طريق عودتها وجدته،نزلت عند أول الشارع واشترت خبزًا وطعامًا،لتقدمها للعجوز رآها بعض جنود النقطة .

- هو أحد البلاوى التى ترمى علينا .

- لاتتعبى نفسك يا مدام مع (هذه الأشكال) حتى لا يطمع فلا ينصرف أبدًا و ربما أغرى آخرين بالمجىء إلى هنا .

فأجابت بهدوء وعيناها لا تزالا معلقتين به : يبدو أنه رجل طيب.

- هاها،أنت الطيبة يا مدام !.

وهنا سارع أحدهم وقد أحضر الماء و أشار إليها أن تنصرف بهدوء قائلاً :

- ماذا جرى يا جماعة ؟! لم تكن إلا لقمة و شربة ماء !.

وأخذ منها الطعام وقدمه للعجوز .

فانصرفت كسيرة النفس تؤنب نفسها لأنها أوقفتها هذا الموقف،وقد كلمت أشخاصًا لا تعرفهم فى الطريق،لا يرون ما ترى بقلبها،لم تنل منهم غير السخرية من تلك التى تسعى وراء مثل هذا الرجل فى الشارع لتطعمه و مثله آلاف !،وربما شكوا في علاقتها به،ومع كل ذلك لم تقترب من هذا الرجل الطيب و لم تكلمه ولو كلمة واحدة و ظل فى العراء !.

عادت إلى بيتها وعيناها مغرورقتان بالدموع،أطعمت صغارها و ساعدتهم فى مذاكرتهم،و كلما سألوها ماذا بك يا ماما ؟! تعللت بالصداع و هربت منهم .

فى المساء دخل زوجها البيت ملابسه مبتلة من أثر المطر ولم يخلع حذاءه مخلفًا أثر الطين فى كل مكان مشى فيه فلم تنبهه لذلك،بادرها كأنه خجل:

- المطر فى الخارج شىء صعب للغاية و طبعًا أنتم هنا حيث الدفء والراحة لا تشعرون بما يعانيه الآخرون.

انقبض قلبها ؛ فهذا ما كانت تخشاه،تشاغلت بحمل ثياب زوجها للداخل وهى تسأله : هل أعد لك العشاء ؟.

انصرفت وهى تغالب دموعها و لا تعرف كيف تمنع نفسها من التفكير فى حال هذا العجوز الذى شدها إليه بخيوط قوية لا تستطيع منها فكاكًا رغم أن هناك غيره كثيرين،فهل تطلب من زوجها أن ينزل إليه ليحضره إلى البيت ؟! وكيف تستطيع إخباره بذلك ؟!،لن تسلم من لسانه على أية حال،فحدّثها قلبها : كله يهون .

- أقبلتى أن يلتف حولك هؤلاء الرجال الغرباء فى الشارع و تلقيت كلامهم الساخر هكذا ؟!.

أجهشت فى البكاء .

- لو رأيته لصعب عليك حاله .
- أولم يصعب عليك الآخرون ؟!،أم أنه كل يوم ستأتين فى بيتى بأحد المشردين ؟!
- فلنقدم له أى مساعدة،المطر يغرق الشارع و ليس له مكان يأويه .

فلأعطه غدًا بعض المال .

المال؟ !،وهل يستطيع هو أن يستفيد منه بنفسه ؟!.

- إن كان هذا البيت بيتك ولك حق استقبال من تشاء أنت فقط فيه - ثم وهى تمسح عينيها بظهر يديها - فسيكون له مأوى آخر إن شاء الله و إن كان فى الشارع ولكن إلى حين .

قامت و بحثت عن بعض الألواح الخشبية فوق السطح،أخذت أحد المفارش من المشمع الذى تستخدمه فى تغطية الغسيل أثناء المطر و الأتربة مع مرتبة أسفنجية قديمة و بطانية وحزمتهم بحبل (السبت) الذى فى البلكونة

ووضعت فيه بعض الأطعمة و جلبابًا قديمًا لزوجها و كوفية و ..،ووضعت كل هذه الأشياء على الأرض أمام زوجها فما أن رآهم حتى ثار و أقسم عليها بالطلاق إن هى خرجت ل...

- أتخرجين بعد الواحدة ليلاً فى عز المطر والصقيع ومعك هذه الأشياء لتقابلى أحد المشردين ؟!.

سيقولون أنه من أهلك و إلا.. أتريدين الفضيحة ؟!.

- ..

- ولن أخرج أنا بها و إلا كان علىّ أن أطوف الشوارع خدمةً للمشردين المتسكعين و أتخذ من هذا عملاً إلى أن تجدوا من ينفق عليكم بعد أن تشرّدوا أنتم كذلك !.

لم تتحمل المزيد فصفقت الباب خلفها وذهبت لحجرة الأولاد و أحكمت حولهم الغطاء و هم نائمون،و باتت الساعات الباقية على الصباح على الكنبة في الصالة لم يغمض لها جفن قلقة حائرة،لماذا أفعل كل ذلك و أتحمل الكثير من أجل هذا العجوز الذى لا أعرفه ؟!.

ترحمت على أيامها السعيدة البعيدة فى قريتها تلك،وعلى والدها الذى تركها صغيرةً و لم يعوضها عنه حنان أم ولا كل ما تركه من مال .

شعرزوجها أنه قد قسى على زوجته المحبة،و كان من الممكن أن يرضيها بطريقةٍ ما ويكسب ثوابًا فى هذا العجوز،ولكن أيصالحها هو؟ أم ينتظر حتى تهدأ وتصالحه هى؟!،استقر رأيه على أن يترك الأمر إلى حين فكرامته عنده أغلى من كل شىء .

استيقظ فى الصباح و ذهب إلى عمله قبل موعده حتى يترك لها حرّية التصرف دون أن يمس كرامته بعد أن ترك لها مبلغًا من المال على المنضدة.

ما أن سمعت صوت انغلاق الباب حتى أيقظت الأولاد و جهّزتهم و أرسلتهم للمدرسة،ثم نزلت وراءهم و قد وضعت الأشياء التى حزمتها بالأمس على رأسها و أسندتها بيد و فى اليد الأخرى أمسكت (السبت)،و ما أن هلت على المكان الذى تركت فيه العجوز حتى رأت رجال الإطفاء الذين قابلتهم بالأمس يستقبلونها بابتسامة،وقد أنزل أحدهم الحاجيات عن رأسها .

و هو يقول خجلاً بعد أن اشتم رائحة الطعام .

والله يا مدام حاولنا أن نقدم له أى طعام منذ الأمس ولكنه يرفض بشدة و لم يذق إلا الماء،ربما تناول شيئًا من يدك .

ربتت على كتفه و قدمت له الطعام فقبله من يدها شاكرًا،لاحظت أنه غير مبتل،فقال الآخر :

- لقد حاولنا إدخاله ليحتمى من المطر داخل النقطة فلما رفض حمله صالح و سامح بالقوة،و ما أن هدأ المطر حتى تحامل على نفسه و خرج ثانيةً وجلس على الأريكة كما ترين وهو يقول كلامًا لم نفهم منه إلا أنه يريد أن يذهب إلى ابنته فى (ألف مسكن) وهو لا يعرف لها عنوانًا ولا لأحد من أقاربه،اقتربت من أذنه وحاولت تبادل الحديث معه فسمعته لأول مرة يتكلم بلهجة صعيدية أرجعتها لبعيييد،أشعرتها بأنه أحد أقاربها فى أقصى الصعيد الذين لا تزورهم إلا مرةً كل عام أو عامين على الأقل رغم شدة اشتياقها لهم ولقريتها،جلست بجواره متربعةً على الأريكة وأخذت تطعمه بيديها و تسأله عن حاله .

- ابنتى مثلك تمامًا يا بنيّتى،لكن منذ أن تزوّجت فى مصر وأنا لم أرها ولم أر أولادها إلا مرةً أو مرتين،أولادى يقولون أنها بخير،ولكن قلبى يأكلنى عليها،إن كانت بخير فلماذا لم تسأل عنّى ؟!،أريد أن أراها و أملى عينىّ منها قبل أن أموت،تركت ناسى،بحثت عنها فى كل مكان إلى أن كلّت قدماى والصحة كما ترين يا بنيتى،(آه يا بوى،تهت فيك يا مصر !،)

وأجهش بالبكاء،ربتت على كتفيه بحنان .

من أين أنت يا والدى ؟

من (فاوي،فاوي بقنا) يا بنيتى .

فما أن سمعت هذا الاسم حتى رفعت صوتها فرحةً،يقول فاوي،و لماذا لم تخبرنا منذ البداية يا والدى ؟!،فنحن بلديات،فاوي قريبة جدًا من قريتنا،بعون الله لأوصلك لقريتك وناسك .

هلل الجميع فرحين وسارع صالح و أحضر الشاى الحبر الساخن و هو يعتذر مرتبكًا .

- لا مؤاخذة يا مدام،حسبناه أحد المشردين المتسكعين فى الشارع كغيره،لا مؤاخذة يا حاج،من لا يعرفك يجهلك ونحن مثل أولادك .

فأجابت فى لهجتها الصعيدية التى تعتز بها :

أنتم أولاد أصول والحمد لله أنه وقع بين أيديكم .

فى هذه الأثناء أقبل زوجها ومعه بعض العصائر واللبن فى كيس بلاستيك وما أن لمحته حتى فرحت بشدة وقد اعتبرت ذلك أكبر مصالحة وانتصارًا لها،وبسرعة عدّلت وقفتها قبل أن يراها ويغير رأيه ونظرت إليه فى ثقة وقدمته إليهم.

- زوجى أبوحمدى .

قدموا له كرسيًا و شرب معهم الشاى وهو يستمع للعجوز وقد تهلل وجهه بعد أن عرف أنه بلدياته وسهل أن يوصله بأهله،صمم على اصطحابه معه إلى البيت،ونظرة الامتنان في عينيه قد أنستهم برودة الجو ووحلة الطريق .

أدخله الحمام وقام بتنظيفه بنفسه وبعث فى طلب الحلاق وألبسه ملابس جديدة نظيفة حتى يبدو فى صورة لائقة،وأطفالهما من حوله يلبون له أى طلب فرحين (بجدو).

خلال ساعات كان البيت قد امتلأ بأولاده و على رأسهم ابنته وأهله وهم لا يصدقون أنهم يرون أباهم ثانيةً،وأن هؤلاء الناس أنقذوهم من العار الذى كان سيلاحقهم طويلاً و سيعيرهم الناس به لأن أباهم الشيخ الكبير خرج ولم يعد،ولم يعش بين أهله وناسه معزّزًا مكرّمًا و يموت معزّزًا مكرّمًا ولن يعرفوا له قبرًا يقسمون به و،ظلوا يشكرونهم بشدة ويعرضون عليهما المال الوفير أو أى خدمة يمكن أن تقدمها عائلتهم العريقة لهما ولمن يحبان و،و،لكنهما أصرا على الرفض وقد أدفأ حبهما له قلبيهما وأشعرهما بالكرامة والكبرياء لأنهما اعتبراه أبًا لهما وجدًا لأولادهما يرحبان به وبكل من يمت له بصلة فى أى وقت .

بعد أسبوع واحد،نشرت الصحف خبر وفاة عميد أعرق عائلات قنا،والد كل من المستشار فلان و رجلا الأعمال فلان وفلان و،ونسيب عائلات فلان وفلان و،التى تضم الكثير من أصحاب الشهرة والعلم والمال، هنا فقط شعرا بالسعادة لوفاة عزيز عليهما !.

****

صياد الهوى

تسلقت الحاجز الخشبى حتى وصلت إلى الفرجة التى به،زحفت حتى أخرجت رأسها و ذراعيها الصغيرتين،ألقت الكيس البلاستيك الذى معها ثم كورت جسدها الضئيل و قفزت دون تردد،وجدت نفسها داخل الفناء الواسع،تلفتت حولها فى مرح طفولى،حكت كفيها الصغيرتين ببعضهما فى نشاط و نفخت فيهما و بدأت عملها اليومى بكل جد .

سارت منحنية بحذاء السور محاولةً حماية جسدها الرقيق من ركلات الأولاد أو كراتهم التى كثيرًا ما أصابتها وهم يلعبون،تلتقط ما قد يكون مركونًا بجواره من لقيمات صغيرة مغموسة فى التراب أو قطع طماطم و طعمية مدهوسة فى الأرض،تنظفها بأناملها الرقيقة المدربة ثم تقبلها و تلصقها بجبينها المترب ثم تضعها فى كيسها .

أغراها كثرة ما جمعته بالمزيد ؛ فاتجهت إلى حيث تلعب البنات الحجلة أو الكبة أو يقرفصن على الأرض يتسامرن و يتناولن إفطارهن،سمعت حميدة تغنى بصوتها ذى البحة الجميلة .

يا صياد الهوى حوّد على شباكنا

رميت الشبك و لا طليت على شباتنا

و البنات يرددن خلفها و هن يتغامزن و يضحكن،قرفصت قريبًا منهن،ووضعت كيسها بجوارها و ظلت تردد معهن و تصفق بيديها الصغيرتين،لم تنس أن تمسح المكان بعينيها لتحدد أماكن وجود بقايا الطعام،ضحكت فى نفسها فى زهو لم يخل من ضيق،إن البنات أنصح كثيرًا من الأولاد لذا يحافظن على طعامهن القليل فلا تستفيد منه كثيرًا،لكن،لا بأس !.

دق الجرس معلنًا انتهاء الفسحة،ترك الجميع أولادًا و بناتًا اللهو و اللعب و اتجهوا إلى فصولهم و هى مازالت تغنى،قامت ترقص على نغماتها و تجمع بقايا الطعام المتناثر و تضعها فى كيسها بسعادة .

اتجهت إلى حجرة المدرسين وهى تتحين انتهاءهم من تناول إفطارهم و شرب الشاى،رأتها (أم صابر الفرّاشة) و هى ترفع أكواب الشاى و تأتى بأخرى فقطبت جبينها .

ما الذى أتى بك بنت يا وردة ؟ !.

ردت على تقطيبتها بابتسامة مصطنعة و هى تضم الكراسى التى كان يجلس عليها الأساتذة و تعيد ترتيبها .

- جئت أساعدك يا خالتى أم صابر .

قفز (عليش) ابن أم صابر الصغير فوق المنضدة التى كان الأساتذة يتناولون عليها إفطارهم ،مد يده فى أحد الأطباق،و التفت إليها وفمه مملوء بالطعام.

- امش يا بنت يا وردة من هنا .

إنها تريد أن تأكل يا أماه و تسمن بطات أمها و أوزاتها و دجاجاتها العتيقة،شفتها صباح السوق قبل الماضى و هى تحمل على رأسها قفصًا كبيرًا مملوءًا بالأوز،كل واحدة منهن حجمها هكذا - و فرّج أصابعه الصغيرة و قوسها و باعد بين ذراعيه بطريقة توحى بأن الأوزة الواحدة فى حجم الخروف! - استوقفتها ست الحاجة (أم صلاح) زوجة حضرة الناظر،لكن اللئيمة رفعت الثمن فى العالى جدًا،ولم تفرط فى مليم واحد .

- أنا ؟!،لا والله،إن شاء الله أعدم نظرى و..

- هيا من هنا بنت يا وردة،حتى ست الحاجة أم صلاح ؟!،أنا عارف يا أماه،كذابة فى أصل وجهها .

قفز من فوق المنضدة بسرعة،تراجعت فى خوف وآثرت السلامة،وظلت تبكى و تتمخض و تمسح دموعًا وهمية فى طرف (الإيشارب) الذى يغطى نصف رأسها .

- هل هذا جزائى يا خالتى أم صابر ؟!،ألأنى جئت أساعدك ؟!،الله يسامحك يا عليش،الله يسامحك .

تركتهما آسفة على ما فاتها،الجبن الذى تبيعه أم صابر للأساتذة لا يعلى عليه،تبيعهم الجبن و تأكل هى وولدها مما باعت !،أأنا اللئيمة يا عليش؟!.

و مصمصت شفتيها،حار ونار فيه،ربتت على كيسها،اطمأنت لقرب امتلائه،اتجهت إلى حيث كانت البنات يجلسن،ظلت تلملم ما تجده من فتات و بقايا طعام و تضعه فى كيسها ثم جلست على الأرض مسندةً ظهرها إلى الجدار،أخرجت ما فى جيبها من طعام الإفطار المكون من عيش البتاو و الجبنة القديمة و عودين الجرجير و البصلة الخضراء مما استطاعت أخذه من فوق المنضدة خلسة وأحذت تأكل بتلذذ و هى تردد ما كان البنات يرددنه من غناء،وعليش يراقبها .

فجاة انفتح الباب الخلفى الذى يطل على حجرة الفرّاش و انطلق البط و الأوز و الدجاج الذى يربيه مع أمه يطلق صيحات الفرح و يرفرف بجناحيه سعيًا وراء كيس وردة الذى خطفه منها بسرعة ونثر ما فيه على الأرض،ووردة تصرخ و تدبدب على الأرض و تسبه بكل سباب ممكن و تلعن اليوم الذى رأته فيه،وهو يغنى ويقلدها،

يا صياد الهوى حود على شباكنـــا

رميت الشبك و لا طليت على شباتنا

عم عبده

فككت منهم بالكاد،لم أصدق أنهم سيتركوننى لنفسى ولو قليلاً،ساعة العصارى،اقتراب الشمس من المغيب،زقزقة العصافير،تهزنى و تملأنى،فمازال هذا الشىء الصغير ينبض بداخلى ويرق،أشك أن أحدًا لم يقرأ فى عينى،فى لفتاتى،دقة قدمّى الأرض أثناء سيرى،فى ربطة الطرحة على رأسى وإحكامها حول كتفاى وصدرى،فى ..،لكن أحداً لم يشعر بى،لم يهتم بى ولن يهتم !.

تحججت بركبتىّ اللتين تؤلمانى،ألمهما الذى زاد كان نجدةً لى؛ فقد اضطرتا أن تتركانى حتى لا أعطلهما عن إكمال حملة شراء لوازم المدارس،على أن تتركا معى (توتة) التى تعلقت برقبتى .

- سأظل معك يا عمتو أنا وأحمد على أن تأتى لنا بحلوى و جيلاتى.

أما أحمد فقد لوى بوزه ووضع يده فى وسطه مصممًا على ما يريد واثقًا أننى سأنفذ كل ما يأمر به طالما أنه يريده ،وأنا أربت على كتفيهما و أتحايل عليهما كى يهدآ و يتركانى.

- لكنكما نسيتما حقيبة المدرسة !،فهى تباع فى هذه المنطقة و(موديلاتها) جميلة جدًا وتستطيعان أن تنتقيا وتختارا ما يعجبكما منها .

وافقت الأمان على مضض ونظرت كل منهما للأخرى ثم نظرت إلىّ .

- طيب،ولكن إذا أعجب كل منهما بحقيبة غالية فلن نتحمل بكاءهما،فأنت السبب و عليك أن تدفعى الفرق على الاقل .

ابتسمت وأنا أدارى ضيقى من استغلالهما الذى لا حد له .

- موافقة بشرط أن تعتقونى لوجه الله الآن و تتركونى،هيا حتى لا تتأخروا .

المرتب به كم فرق ؟ !،الكل يطمع فىّ و يستكثر علىّ مجرد شراء طرحة أو حقيبة يد أعجبتنى أو بلوزة- وليس طاقمًا كاملاً- مهما كانت زهيدة الثمن !،ولمن ستلبسين ؟!،إن لم يقولوها بألسنتهم قالوها بأعينهم !، و أين تذهبين بمرتبك و أنت لا وراءك بيت و لا رجل و لا أطفال ؟!،أنت فاضية !،خذى الولد غيرى له ملابسه و حممه و اغسلى ما يخلعه،ذاكرى للبنت،اعزمينا على الغداء،هات كذا،اعملى كذا،ساقية.. !،ألف أنا فى ساقية !.

العصافير،أعشقها،زقزقتها،رقتها،تآلفها و كأنها تنشر السلام فى السماء و الأرض،أسعد برؤية فنون الحب والغزل بينها،حنانها على صغارها،هل إذا كان لى جناحان مثلما لى قلب عصفورة أتكون الحياة دنيا أم جنة؟!،آخذ صغارى فى حضنى و أحوطهم بأجنحتى و أدفئهم بقلبى،و عصفورى يملأ عشنا الجميل بالأمن و الأمان،بالحماية،بالحب،فهل يتغير حظك يا منى ؟!.

- حطها فى عينيك،والله لولا الملام كنت خطفتها أنا منك و طرت بها.

ست البنات أنت،حبيبك يا حلوة رجل جدع و سيتزوجك إن شاء الله و أول المعزومين سأكون أنا،و سأجلس فى الكوشة بينكما و سآخذكما فى حضنى و أقبلكما،نعم،ألست مثل أبيكما ؟!.

قبل أن يجيب الحبيبان الصغيران رفع يده عن كتفيهما و أخرج من جيبه بكل وقار كارت أبيض مزين بشريط أحمر معقود على هيئة (فيونكة) مذهبة و مطعمة بفصوص زجاجية براقة و بها إقرار وتعهد بكل حاجة حلوة،بالحب والزواج و عهد الوفاء بين قلبين،بالسعادة و الهناء .

و سأبنى لك قصر عالى وأخطف لك نجم الليالى و..،عش العصفورة يكفينا ..

و لا عاوزة مال و لا كثرة جاه و أنا هنا يا ابن الحلال ..،ولن أكون لغيرك ..

و أنت الحب و أنت الجنة و..

و(الفيونكة) الحمراء تشهد على حبنا،و الشمس قبل أن تروح باركت إخلاصنا،و زقزقة العصافير تزفنا،

- منى،منى،أفيقى يا منى !.

الأمورة عطرها الفواح يصلنى وهى على بعد عشرة أمتار!،تنظر فى الساعة و على شفتيها ابتسامة،تعجبها خطوتها و جمال عودها ووقفتها،تقلق وهى فرحانة،العربة العشرة أمتار انفتح بابها ونزل منها الغالى و سيم مهندم ومقامه عال،تقدم وابتسم بخفة و أحاط خصرها بعد أن لثم أناملها،و أركبها بجواره فى السيارة وهو يهمس فى أذنيها و عطرها الفواح يملأه ويلهبه وانطلقا معًا !.

ورود الجنينة شوكها اختفى مع آخر ذرة حياء،الأنامل تعبث فى الجيب و الصدر،الكف مستكينة فى الكف فى حضن القلب،الرأس نائمة على الصدر،الأذن ترتوى بالعسل و اللسان لا يقول غير الشهد و دارت الاسطوانات راقصة ،ساكنة،معربدة،و.. وعم عبده يدور بينهم وبيده عهد الوفاء و الحب،يبارك كل عصفور و عصفورة و يدعو لهما بالسعادة و البنات و البنين،يعزم نفسه على فرحهما الحقيقى أو المزعوم،و ربما عزم عليه الولد الجدع بسيجارة أو زجاجة عصير أوناوله شيئًا من نقوط عرسه- الذي في علم الله - أو أعطاه هو من جيبه إن لمس فيه فقرًا و حبًا و إخلاصًا،الجميع قريب منهم،يعرف أسرارهم و يحل مشاكلهم.

- أما أنت !،فزينة البنات،طال انظارك يا حلوة لكن صاحب النصيب فى الطريق آت .
وجدته أمامى و قد أفسح لنفسه مكانًا وجلس جوارى و كأنه كان يسمع حديث نفسى و عيناىّ ! .
- هل أعجبوك ؟!،الحب جميل يا زينة البنات و أنت المنى وأنت الأمل وكل هذا لعب و شباب،هم أنفسهم فى كل مكان و زمان،وجنّة الأحبة معروفة لكل الناس،فى وسط البلد وامبابة و المعادى و منيا العسل،كل واحد يراها بعينه هو،فسحة للشباب للفرجة و التعارف أو لتمضية الوقت من غير تكلفة و أجرة للمكان،و الحبّيبة والعشاق دائمون و غير دائمين،التغيير للغالبية يا زينة البنات مطلوب وأحيانًا (غيّة)،والقصد على من يدوم و يكون ابن حلال .

فغرت فاهى و أنا أنظر إليه مرتبكة،هل أقوم بسرعة و أتركه ؟! أم أسمعه ؟!،لم يترك لى فرصة و ظلّ جوارى ينظر إلىّ بود و كأننا معرفة قديمة،انتظرنى طويلاً وها قد جئت،عينه لم يرفعها عنّى،تقول كلامًا،حلو،حلو،وأنا قلبى قلب طفلة محرومة من الحلوى.
تراجعت بظهرى للخلف،حاولت أن ابتعد قليلاً وأنا أبدى تشاغلاً و تجاهلاً .
الشوك يا منى !،الشوك يا منى !،الحكاية ليست ناقصة و يكفى ما بالقلب من مواجع .
- ما لك يا زينة البنات ؟! !،أتتعجبين ؟!،عم عبده جامع قلوب الأحبة و العشاق ،مستشارهم و حبيبهم،شاهد على قصة حبهم من أول نظرة جرّاحة،جريئة تجذب و تتكلم،أو نظرة جفونها مرخية حياءً و دلالاً،أو مبتسمة جرجرةً وفتح كلام !،وتتويجها بزيارة مأذون أوورقة عرفية أو حتى السلام عليكم و عليكم السلام !،الكل هنا يعرفنى،و أنت يا زينة البنات أنا أعرفك من زماان،انتظرتك و بحثت عنك طويلاً وها قد جئتى و الحمد لله،فلم الممانعة و الدلال يا ست الحسن و الجمال ؟!.
ابتسم قلبى لأول مرة و أنا أسمعه و أدعه يقترب منى فى جلسته .
- فى جلسته فقط يا منى ؟!.
الطيبة والصدق فى عينيه و الشهد فى لسانه،طريقته العجيبة،المقتحمة الجسور شدتنى والنحل فى عقلى يقرص،و أنا قلبى شبع قرصًا و توجيعًا .
و كأنه قرأ عينىّ،قرأنى كلىّ،تسللنى،ذابت الكلمات من بين شفتىّ،لسانى الحاد الذى أبعد به كل من يفكر فى التطفل علىّ وجرحى تاه منّى و استكان قلبى و هدأ !.

- الصمت موافقة .

رفعت جفونى المثقلة بشجنى و استكانت يدى بين يديه بلا مقاومة،بلا تفكير فى أدنى مقاومة،براااحة انتظرتها .

- أفيقى يا منى،أفيقى يا منى !.

- أأنا منى ؟!.

ثم و كأنه التقطها بقلبه لا شفتيه .

- يا منى قلبى،لا تخافى ؛فقلبى بين يديك عصفور لن يحيا بعد الآن إلا بك و لن يدفأ إلا بك،شعرى الأبيض دليل طول انتظارى و دفء قلبى و حنانه و شبابه،بيتى قلبك و كل ما أملك ملك لك .

- لا يا منى،لا يا منى،شبعتى كلامًا كبيرًا و طمعًا أكبر .

- قلبى يحدثنى بأنه رجل طيب و سأرتاح معه فلماذا لا أدع له فرصة ؟!

- كونى واعيةً يا منى،أنت لا تعرفين عنه شيئًا.

- فلأعرف .

- فى الشارع يا منى ؟!.

- ليكن بعدها البيت .

- من الشارع يا منى ؟!.

- من السماء !،كنت أتمنى أن ألقاه و قد لقيته بعد طووول انتظاار،هاها،قضاء الله و قدره كما كنت أحلم دائمًا - منى !.. أفيقى يا منى !.

- دعينى و شأنى يا نفسى،دعينى،الصدق فى عينيه جنة و بالحنان ملآن .

- أين كنتى يا حورية الأحلام ؟!،فاليوم عيدى و سأكون فى بيتكم غدًا إن شاء الله،لا،بل اليوم،اليوم يا مناى .

قالها و هو يتحرّق شوقًا لأن يلثم أناملى و لكنه يجاهد نفسه،فى بيتنا يا مناى،فى بيتنا يا مناى .

رفعت عينىّ لأرتوى من عينيه وجدتهم !،وجدتهم مقبلين علىّ والصغار يجرون و هم يصيحون .

- عمتو منى،عمتو منى ومعها رجل !.

انتفض قلبى كعصفور صغير أدمته العواصف وأغرقته الأمطار،و لمّا لاذ بعشه انقض عليه نسر كاسر لم تعرف الرحمة يومًا طريقًا إلى قلبه.

فزعت .

- انصرفْ،لقد عادوا .

توارى خلف الأشجار وتركنى !.

نظراتهم تحرقنى،الشوك فى ألسنتهم .

- من هذا الرجل الذى كان معك يا هانم ؟!،وما هذه الجلسة الرومانسية ؟!.

- أأنت صغيرة على مثل هذه الحاجات ؟!،ماذا تركتى للبنات الصغيرات ؟!.

- انطقى،كيف سمحتى لنفسك ؟!،من كانت فى مثل سنك تستحى من نفسها !.

- لماذا مشى عمّو ولم يسلّم علينا يا عمّتو ؟!،من هو ؟!.

- آاااه،آاااه !..

أعلنها الصغار بخبثهم البرئ من خلال ابتساماتهم و ضحكاتهم التى تقول الكثير .

- سأقول لبابا .

- وانا سأ قول لجدو وتيتة .

لم أدر كيف امتدت يداهما إلى زجاجتى المياه الغازية و الحلوى التى قدمها لهم جميعًا – وهما ذاهلتان – مع الأولاد وهم فرحون ؟!.

عيناهما مفتوحات عن آخرهما و على الوجه صفرة و ألوان متباينة ولا تجدان ما تقولانه أو تفعلانه !،أتثوران ؟!،أتنصرفان ؟!،أتتجاهلانه ؟!،أم تعترف كل منهما أنها تعرفه ؟!،وأي معرفة تلك التى تخشيانها ؟!،وأنا أنظر إليهما فى اضطرابهما و الصدمة التى نزلت عليهما و الخوف و الخجل فى أعينهما – وإن حاولت كل منهما أن تداريه ففشلت – بعد التشفى والغضب والثورة -،ولا أدرى ما الذى يحدث أمامى ! .

لم ينقذنى ويريحنى إلا ابتسامته الواثقة المطمئنة و كلماته الدافئة .

- الله يا مناىّ،نحن معرفة قديمة،ثم وهو يغمز لكل منهما من طرفٍ خفىّ،قديييمة،والحمد لله .

ما شاء الله،ما شاء الله،أهؤلاء أولادكما ؟!،ربنا يبارك .

كيف حال الأستاذ أحمد والأستاذ أيمن ؟!،فالأولاد يشبهونهما كثيرًا .

نظرت كل منهما للأخرى .

- أتكونين أنت ؟!..
- وأنت تكونين كذلك ؟!..

ثم نظرتا إليه متوسلتين ألا يفشى سرهما و أنا أتعجب من سر هذا التبدل،انشغلت كل منهما بنفسها و مشكلتها ونسيتننى وصرت أنا التى أتكلم و أرد على أسئلته الودودة و مجاملاته الرقيقة،كأنه ليس فى الأمر شىء و الأولاد من حولنا يلعبون !،وهو يحاول ان يطمئن الجميع،. وقد اطمأنّ الجميع .

(لا حياة بدون حب،و تفاهم)
هذا شعار مكتبنا أنا و زوجى الحبيب (مكتـــبـــــــــــ منــــــاى)
للاستشارات الأسرية و لراغبى الزواج من الجنسين لصاحبه و مديره د/ عبد الحمن عبد الهادى (الشهير بعم عبده)
دكتوراه فى شئون الحب و الأسرة من جامعات أمريكا و فرنسا ومساعدته مدام منى
ش الجـــنينـــة بالعمــــرانيــــــة

****

فضة منورة

أتتركينى يا إيمان ؟! أتتركينى بعدما رسمناه من مستقبل وحياة مشرقة معا ؟!،وأنا ..هل سأدخل يوما بوابة حلمى فائزة وأرقى سلالم قصره مهما حاولت وكافحت ؟!،الأمل فى ربنا كبير !.

مسحت عينيها وأنفها بطرف (الإيشارب) وهى تمصمص شفتيها،تذكرت ما قالته لها يوما ؟،بوابة قصر الأحلام للمحظوظين وليس للمكافحين،غمزتها فى ذراعها وأقسمت عليها ألا تقول مثل هذا الكلام ثانية فوافقت،أجهشت بالبكاء،أخرجها صوت أمها وهى تنادى عليها مما كانت فيه،حاولت تجفيف دموعها ففشلت،سكبت الماء من القلة بجوارها على وجهها ورأسها حتى ابتل صدرها،لم تستطع إخفاء صوت نحيبها،دخلت عليها أمها وعلى رأسها (طست) المواعين الألومونيوم ممتلىء وفوقه تل من الأوانى والأوعية التى تحتاج إلى غسيل،أنزلته عن رأسها وهى تنظر إلى الأرض وتنهنه.

- كفاك بكاء،البكاء لن يغير شيئا،صحيح إيمان صاحبتك وجارتك وكنتما تذاكران دروسكما معا ولكن ما باليد حيلة،أبوها وقد أمر !،حتى لما سقتن عليه أنتما وزميلاتكما حضرة الناظر والأساتذة ماذا حدث ؟!،ركب دماغه أكثر،بنته يا ناس !،حتى خرج الجميع من بيته فى شدة الحرج،هذا الذى نأخذه منكن !.
- يا أماه،إيمان أكثر من أختى كما أنها الأولى دائما على المدرسة،والله هذا حرام .

- المهم تكون الأولى فى بيت حماتها وتدخل زوارقها وتسد فى بيت زوجها فهوبيت عيلة،ربنا ينفخ فى صورتها وبشطارتها ولسانها تغلب سلفتها الكبرى وهى نفسها التى تجلس أمام الفرن مباشرة،فأنت تعلمين مدى سطوة حماتها فى بيتها أم ما فائدة (العلام) إذا ؟!.
- أهذا الذى ستأخذه من (العلام) فقط يا أماه،إن أخذته ؟!.
والجامعة يا أماه ؟! .
- الجامعة لم تخلق لبنات بلدنا،والحمد لله إن صاحبتك أخذتها من قريب ولزمت البيت إلى أن يفور جسمها ويلتف عودها زيادةً إلى أن تزف إلى عريسها وهو منتظر .

رفعت عينيها إلى أمها فى ثقة وأمل .

- الحمد لله يا أماه أنت وأبى متعلمان ؛ تقرآن وتكتبان وقد قلتما لى أنكما ستكملان لي تعليمى إلى آخر جهدى ولن تملا أبدا أو تكسلا .
- أنت ونصيبك يا ابنتى،جهدك وجهدنا لايعلمه إلا الله.

اتركى رزقك على الله،كل البنات فى الأول يقلن كلاما مثل هذا،هربا من شغل البيت وأعبائه ثم إذا جاء ابن الحلال الذى يشغل البال تمنعن قليلا ثم وافقن وعشن فى سعادة،هيا بلا وجع دماغ،أختك تركت لك عباءتها أمس،عباءة حلوة عليها القيمة ضاقت عليها ولكن ستكون عليك مناسبة،هيا لتغسلى المواعين مع البنات .

- قلت لك مائة مرة يا أماه لن أغسل أى شيء فى الترعة .
- ما لها الترعة ؟!،الترعة التى تربينا جميعا على الغسيل بمياهها !،هيا بسرعة البركة فى البكور،إياك أن تتأخرى عن البنات،أريد الألومونيوم فضة منورة وإلا الناس يقولون عليك خائبة وأمك خائبة !.
- يا أماه،طيب أغسلها بعد عودتى من المدرسة من ماء (الترومبة) .
- لا،قلت لا مدرسة اليوم،كلامى يسمع،هيا بلا لكاعة الشمس قاربت الشروق.

ارتدت العباءة وسوت (فوطة) صغيرة مطوية على رأسها،ساعدتها أمها على رفع طست المواعين عن الأرض،و أمطرتها بنصائحها حتى خرجت من الزقاق المؤدى للشارع الكبير .

- انصبى عودك،ارفعى رأسك،إياك رفع الصوت والهذر مع البنات،ادعكى المواعين جيدا،أريدها فضة تبرق وتزغلل العين،انتهى من عملك قبل باقى البنات،لاتكلمى أحدا من زملائك الأولاد معك فى المدرسة لقد صرتى عروسا وعليك العين،ادعكى قدميك جيدا بعد الانتهاء من دعكك المواعين،وأنت آتية صبحى على خالتك أم اسماعيل وسليها إن كانت تحتاج شيئا .

أخذت تسرع فى مشيتها وهى تنوء بحملها حتى تنتهى من نصائح أمها،صافح وجهها هواء الصباح الرطب فهدأت نفسها شيئًا ما،مشت مع البنات وهن يحملن مواعينهن وكل ما يردن غسله فى الترعة .

- مازلت حزينة على إيمان ياسميرة ؟!،ذاكرنا مهما ذاكرنا لن نحقق شيئا،(أمل) جارتنا رغم أن أباها موظف وحصلت على مجموع كبير فى الثانوية العامة تزوجت وزوجها أقسم عليها ألا تفتح كتابا وألا تلتحق بالجامعة ويكفى أنه صبر عليها،حتى وصلت إلى الثانوية العامة !.
- واحدة وجاء لها عدلها المفروض نفرح لها ولاداعى للتنكيد على أنفسنا ولا عليها،ها هى إيمان خارجة من زقاقهم .

انتشى قلبها عندما رأتها،اتجهت نحوها .

صباح الخير يا إيمان،لقد أوحشتنى كثيرا .

- أنت الأكثر،يعلم ربنا كيف مرت هذه الأيام علىّ،وعلينا جميعا،ولكن ما باليد حيلة،حاولت أن أذاكر فى السر (من منازلهم يعنى) من غير أن يعرف أبى وأخوتى،أمى وافقت بشرط أن أقضى لها كل طلباتها لأنى لن أضيع وقتى فى المدرسة لكن حماتى رأت بعض ما استعرته من كتب وكانت حكاية !،بعدها حلفت علىّ أمى أنى لاأفتح أى كتاب ووضعتهم فى صندوق تحت السرير وهددتنى إن لم أرجعهم لأصحابهم فإنها ستمزقهم جميعا .

- خلاص يا إيمان،الخيرة فيما اختاره الله،ارضى بنصيبك ونصيبك خير إن شاء الله،حتى والله كتب (ثالثة إعدادى) هذه صعبة جدا وكثيرة وأنا كثيرة التغيب عن المدرسة كما تعلمين،حاولى أن تعلمى أبناءك ما لم تتعلميه أنت .
- أما ربنا يعطيهم لى أولا،ولكن هل سأستطيع تربيتهم تربية حسنة فى هذا الزمن ؟!،اتركينى..،أليس من الأفضل أن أحقق أنا ما أريد أولا ؟!،كافحى ياسميرة ولا تستسلمى مثلى .
- لن أستسلم أبدا مهما حدث،أبواى يقرآن ويكتبان وقد وعدانى بتكملة تعليمى والحمد لله نحن مستورون .
- هيا نعود قبل البنات،حتى لاتنهال علينا شتائم أمهاتنا وشماتة بعض الجارات لأننا بنات مدارس صعب نسد فى بيت .

وانصرفت كل منهما إلى بيتها .

وجدت بوابة دار أم اسماعيل مفتوحة وهى واقفة تنتظرها .

- صباح الخير يا خالتى أم اسماعيل .
- يسعد الله صباحك يا زينة البنات،لماذا لم تصبحى علىّ قبل الذهاب وتسألينى إن كنت أحتاج شيئا؟! .
- قلت،أمر عليك يا خالتى وأنا عائدة،ماذا تأمرين ؟.
- الأمر لله يابنتى،أنا مهما بحثت فلن أجد عروسا أجمل ولا أفضل منك لابنى،أتخجلين ؟!،ماشاء الله أنت كالقمر وعودك غصن بان قارب على الاستواء - فى بيت زوجك إن شاء الله - لست أدرى ما المانع من التأخير ؟!،فقد قرأ عمك الحاج أبو اسماعيل فاتحتك على ابننا منصور العام الماضى وأنت لا تعرفين بحجة أنك صغيرة ولكنك لاصغيرة ولاحاجة،قلت لأمك بالأمس أنها يجب أن تقول لك،نفسنا نفرح .

ثم وهى تتفرس فى نهديها واستدارة ردفيها ،وتقيم طولها وعرضها .

- أم ماذا يازينة البنات ؟!،خير البر عاجل .

ورفعت رأسها بزغرودة حلوة على أثرها التفت زوجات الأبناء حولهما مع الصغار والبنات وأطلت الجارات من الأبواب والشبابيك .

- قولى لأمك أننا سنأتى الليلة للاتفاق على الشبكة وموعد الزفاف إن شاء الله .
- ألف مبروك ياسميرة،ألف مبروك يا عروسة .
- انظرن،البنت ستطير من الفرح،إنها تكاد تسقط من طولها،احملى عنها الطشت يابنت،يدك معها،مواعينها فضة منورة،الله ينور ليلتك ياعروسة،هذه دموع الفرح .

وأخذت القبلات والأحضان تنهال عليها .

- إنها فائرة الجسم وصالحة للزواج ،العباءة المبلولة لا تخفي شيئًا ،قالتها زوجة أحد الأبناء وهى تربت على فخذها - وهى جالسة بينهن - وتتملى من جمالها وقدها .

لماذا أخفت أمها أمر الخطوبة والزواج عنها ؟!.

تركتهن جاريةً نحو الترعة،وقد عزمت أمرًا،وهن يشيعنها بالزغاريد .

- شكلها مكسوفة والله .
- البنت من الفرحة اتجهت نحو الترعة بدلا من البيت!.
- ياعروسة،ياعروسة ..

لم تلتفت وراءها ولم يثنها كلامهن وسارت فى طريقها............

****

يحسبهم الجاهل

الطابور يزداد طولاً وانبعاجًا و لم تزل الساعة السادسة صباحًا،من أين جاء كل هؤلاء ؟!،ابتسمت لسذاجتى،الحق على الحاج عبد الراضى الذى عوّدهم - و هم جميعًا من الفقراء و المحتاجين – على ذبح عجلٍ وتفريق لحمه عليهم مرتين أول الشهر ومنتصفه بدلاً من مرة واحدة فقط بعد أن رزقه الله الولد !.

منظر الدماء وصبيان الحاج يزيحونها بالمسّاحات و خراطيم المياه ناحية البالوعة بشع،يثير النفس ويرهقها،و إن كان يأتى بكل هؤلاء الذين يتشممونها عن بعد و يسعون وراءها،وراء قطعة لحم طيبة،يزاحمون من أجل الوصول لأول الطابور المنبعج يمينًا و شمالاً،لا يبالون بردًا و لا حرًا،أصواتهم مختلطة بنداءتهم،شتائمهم،صياحهم،توسلاتهم كلّ بطريقته !.

هذه المرأة المسكينة التى على ذراعها – دائمًا – طفل و يجرها من ذيل جلبابها الأسود الفضفاض طفلان آخران،كثيرة التوسل و البكاء و الدعاء على الأيام التى حرمتها الزوج و الأب برنة حزن وألم و مسكنة لا تمنعها من الدفع و الشد والتقريص فيمن حولها حتى تخترق الطابور،و ما أن تصل إلى الحاج عبدالراضى الجالس على كرسيه أمام الذبيحة بجلبابه الناصع البياض كطاقيته و المسبحة فى يده تدور مع تمتماته بذكر الله الذى لا ينقطع إلا ليعطى أمرًا لهذا الصبى أو ذاك ليسرع فى عمله على أكمل وجه،و يطمئن الموجودين بأن خير ربنا كثير وسيكفى الجميع إن شاء الله حتى تنهمر دموعها مع دعواتها التى تشرق بها مع دموعها و تعود تنهمر وتفتت القلوب حتى تنفذ من حجر الصوان ؛فما بالها مع قلب الحاج عبد الرضى الطيب و صبيانه الذين يعشقون الجمال !.

تنحنى على يد الحاج بسرعة قبل أن يسحبها وتقبلها و تبللها بدموعها وهى تتعمد إخفاء رأسها بطرحتها السوداء المبلولة المهلهلة كثوبها المحبوك على جسدها بعد أن أطلق صبيان الحاج خرطوم الماء على المزاحمين ليكفوهم عن الصياح و الشجارالذى أيقظ الجيران حتى الميدان قبل شروق الشمس .

جميلة هى ذات عينين منكسرتين يزيدهما الانكسار حلاوةً و تأثيرًا،ودعاء لا يجاريها فيه أحد هؤلاء المتزاحمين المتشاجرين الذين يعتمدون على رأس مالهم من الدعاء بالصحة و العافية و الرزق الوفير و البركة فى الأولاد،يتفننون فى كل ما يأتى على جراح من يدعون لهم و يمس قلوبهم أو حتى خجلهم ؛فيعطون بسخاء و لو كانوا بخلاء !.

ما أن تأخذ (اللفة) التى بها قطعة اللحم - المنتقاة - حتى تخلع طرحتها وهى تهزها و وتحركها أمامها صعودًا وهبوطًا و ينكشف شعرها الأسود الحريرى ونحرها الجميل وعرقان نافران يؤيدان حرقتها فى الدعاء بالخير للحاج عبد الراضى و ذريته إلى يوم الدين،فاردةً ذراعها وثانيةً له فى قوة تشهد الخلق الحاضرين منهم و الغائبين على طيبة قلبه و الصغيران اللذان يجران ذيل جلبابها يرددان ما تقوله بحرارة كتلميذين نجيبين يحرصان كل الحرص ألا يفوتهما كلمة أو حركة لا يؤديانها و الرضيع على صدرها هادئ لا تروعه حركاتها العنيفة المفاجئة فقد اعتادها منذ كان فى بطنها تغذيه من فيض عطايا الحاج عبد الراضى و أمثاله .

خرجت من الطابور مرضية،– فهن يسهلن الخروج من الصف لا دخوله –،لم تنسها فرحتها إظهار بقية من انكسار وتواصل الدعاء و الشكر للحاج وليكثر الله من أمثاله،لا تبالى بخبطة كتف و لا حشرة جسم و لا نظرة حسد أوغيرة من إحدى المتزاحمات المتشاجرات ولا حتى قرصة؛ فهى فى أى مكان ستنال أول لفة !،أحلى ما فى الذبيحة،و ستغلبهن و تكيدهن فيتحن لها المرور متحسرات .

رأيتها تتخفى تحت الشجرة أسفل العمارة المجاورة و تعطى ما معها لأحد الصغار ليخفيه و تشير لفتى و فتاة بسرعة الذهاب لأخذ مكانهما فى الصف،طبعا فى أوله !،قبل الزحمة و ليلحقا بها عند المعلم عبد الكريم و لا يتاخرا فهو لابد ذابح العجل الذى كان مربوطا أمام محله أمس ليلاً .

حاولت أن أتذكر آخر مرة تناولت فيها اللحم مع أسرتى بعد عيد الأضحى ففشلت !.

تركت الشباك و ذهبت لإعداد ملابسى للذهاب إلى الكلية،فلا إفطار ولا مصروف اليوم،المهم كارنيه الأتوبيس موجود ولله الحمد ولأكمل المسافة الباقية مشيًا بدلاً من الميكروباص،و يقولون المشى رياضة !،هاها،رياضة لمن لا يتعبون فى المواصلات أو على الأقل يملكون أجرتها كاملة!.

ارتديت جيبتى – جيبة أختى الوسطى – لم تتنازل عنها إلا بعد أن نحل وبرها فأخذتها منها قبل أن تهلكها فى البيت،الحمد لله على النحافة،يقولون أنها عنوان للجمال !،هاها،ضرورة هى،بل واقع مفروض،صحيح هى زائدة نوعًا ما لكنها تتيح لمقصى الذى لا يخيب قلب تلك الجيبة – كغيرها – على ظهرها و التخلص من أماكن نحولها وخيوطها البارزة التى تطل من جوانبها المنسلة كشاهد عيان لا يمكن إغفاله و تغيير قصتها إن أمكن،سبع صنائع،نعم!،ولكن هل البخت ضائع ؟!،أم أن ما فزت به من إعجاب زميلاتى بلونها ذاك الباهت الجربان على أنه آخر صيحة فى عالم (الموضة) و كذلك تفصيلتها و حبكتها التى تفننت فى إظهارها لرشاقتى يكفى ؟!.

فتح أحمد و منى أخواى الصغيران التوأم الباب فجأة وهما يفتشان الحجرة بعينيهما عنى،فرحا لمّا وجدانى قبل أن أذهب للكلية،رفعا يديهما النحيلتين أمام عينىّ و بهما ميداليتين صغيرتين عليهما رسوم رقيقة بارزة ل(تويتى) و (بكار)- الشخصيتين الشهيرتين فى أفلام الكارتون - وهزّاهما أمام عينىّ بإغراء،أيهما أجمل ؟!.

- كم تساويان؟! .

- لا أقل من ثمن كشكولين وقلمى جاف و مسطرتين و..

- مهلاً،أصنعتا من ذهب ؟!،هاها،أتستمتعان بمذاق الدوم اللذيذ و تريدان أجرًا على ذلك ؟! .

اقتربا منى و نظرا فى عينىّ برجاء وهما يربتان ما طالاه من ذراعاى .

- والله يا أبلة أمل كشكولا الواجب انتهيا أمس،و(المس) ستعاقبنا إن لم نأت بكشكولين جديدين و ستقول أن هذه حجة و ستغضب منا،سترى المس الواجب اليوم و سنتحمل الذهاب إلى المدرسة من غير كشكول واجب نكتب فيه، ثم و هما يشيران بإصبعى السبابة الرقيقين و قد أو جعهما استخدام السكين الحاد.

- على العموم إن لم يكن ثمن الميداليتين يكفى،نسهر نحن الاثنين و نعمل أخرى .

قبلتهما و أخذتهما بين ذراعى.

- لا. بل ستشتريان ما تريدان من المكتبة أسفل البيت قبل الذهاب إلى المدرسة.

- صحيح و الله ؟!.

قالاها وهما يتنططان من الفرح،تخلصت من ذراعيهما وقبلتهما و أنا أطمئنهما .

دخلت حجرة أمى أناولها حبات الدواء اليومية ،أخذت بعض النقود اللازمة من أسفل الوسادة التى تنام عليها فى صمت و هى تربت على كتفى و تدعو لى ولإخوتى با الفلاح والهداية و أنا أحاول ألا تتلاقى عينانا،فهى تعلم جيدًا أننى لا أفعل ذلك إلا لضرورة قصوى .

هززت الميداليتين المنحوتتين في دقة من قلب الدوم بعد قشط الغلاف الخارجى اللذيذ والتى تباع على عربة يد أمام باب المدرسة لكن من الصعب اكتشاف هذه المعلومة للكثيرين فأناملهما أنامل فنانين موهوبين !،لكن هل سيستطيعان مواصلة الطريق ؟!.

وجدت حقيبة يدى التى تطل الشقوق من جوانبها فارغة من محتوياتها و بها ورقة مكتوبة بخط جميل منسق .

- ارحمى تلك التى تسمينها حقيبة يد،وحلال عليك الحقيبة التى تعجبك من الحقائب التى أسفل السرير، لا توقظينى،فقد سهرت كثيرًا بعد أن انتهيت من آخر حقيبة لأذاكر .

الحقيبة الواحدة تكلفت سبعة عشر جنيهًا و نصف خلاف الوقت و المجهود و(تمقيق) العينين،المكسب بالنصف،و أنت و شطارتك .

ملحوظة

أنا لم أسدد مصاريف درس اللغة الإنجليزية حتى الآن.

أختـك شهـيـدةالثانـويـــة العامـــة

ابتسمت،المحاضرات مشحونة اليوم،كلها عملى،فكيف سأمارس عملية العرض تلك حتى يتم البيع و جميعنا يحتاج قروشها و ملاليمها ؟!.

وضعت أدواتى ومعها الميداليتين فى الحقيبة الجديدة الأنيقة،لا يوجد أى تناسب بين هذه القطع الفنية الرائعة وحذائى الذى برى نعله،لا بأس،تذكرت ما فعلته بجيبة أختى الوسط فابتسمت،نحن عائلة فنانين على قد الحال،من يرانا يحسبنا مقتدرين أغنياء !،وما ظنه بعائلة الأستاذ صادق فكرى المدير العام بالمعاش الآن ؟!،

تمنيت أن تسير الأمور على ما يرام و يعجب زملائى بالحقيبة و الميدايتين اللتين علقت إحداهما فى يد الحقيبة وفى الأ خرى المفاتيح و يترجوننى أن اشترى لهم مثل هذه الأشياء أوحتى أخبرهم من أين اشتريتها!،يترجوننى؟!،أترى أنها تعجبهم أصلاً ؟!،أو حتى يلتفتوا إلى أى منها ؟!،كل بداية صعبة،أعنى يا رب .

نادانى أبى قبل أن أفتح باب الشقة وأخرج .

- يا با شمهندسة،نسيتى (الساندويتشات!)،الطعام يعدل المزاج،و يساعد على التركيز .

ودس فى يدى مبلغًا من المال .

- جزء من أول قسط (لكورس) تلك المادة الصعبة التى تشكين منها و لا أعرف لماذا يسمونها هذا الاسم الذى يزيدها صعوبة ؟!،ضحكت و أنا أدس المبلغ فى الجيب الداخلى للحقيبة و أقبله،لا أحد يأكلها بالساهل .

- ادع لى يا بابا .

حمدت الله كثيرًا ؛فما زال أبى يدللنى و يتعب كثيرًا من أجلنا،فكم تمنى أن أكون (باشمهندسة قد الدنيا) كما يقول دائمًا و ها أنا أحاول أن أحقق أمله الكبير!،لكن هل سأجد عملاً مناسبًا بشهادتى تلك الصعبة رغم أننى فتاة ؟!،أم سأركنها على الرف بعد كل ذلك الشقاء وألتحق بأى عمل؟! أم سأجلس بجوار الكثير من الشباب و لنأكل طوبًا،هذا إذا وجدناه ؟!.

الجو بارد،أحكمت إغلاق أزرار الجاكت بعد أن تأكدت من ارتدائى (للبودى) الصوف الذى صنعته أمى،الأمطار بالأمس صنعت بركة ماء كبيرة،لم أستطع الصعود على الرصيف،العربات مركونة عليه أو بجواره و الطريق مسدود،البوابون و معاونوهم يغسلونها كيفما اتفق،يكفى فقط أن يسكبوا الماء على الأربع عجلات و يرشوا بعض الماء هنا و هناك حتى يقبضوا لهذا ثمنًا كبيرًا غير البقشيش وإلا يشهرون بأصحابها ويقولون أنهم ناس بخلاء جلدة لا يهون عليهم القرش،ويا ويله من يمتنع أو حتى يحاول غسل عربته بنفسه !،ترى ماذا سيقولون عمن غسلت الأمطار عربته ؟!،ولمن سيقدم البقشيش فى هذه الحالة ؟!.

اضطررت أن أصعد خرابة عم دسوقى كما يسمونها وأمشى على حافتها حتى أصل إلى آخر الشارع،الولد الصغير يجرى عاريًا كما ولدته أمه فى هذا البرد الذى تقشعر منه الأبدان وهو يشد شعره الأصفر المشعث و يصرخ باكيًا و يغوص فى بركة الوحل حتى نهاية فخذيه !،انقبض قلبى وصعب علىّ حاله بشدة و أنا أناديه لأطمئنه .

- لماذا تبكى يا حبيبى ؟،لا تخف يا بابا .

قرفص الولد بعيدًا أسفل الشجرة مرتجفًا باكيًا وهو يشير إلى نهاية الخرابة بسبابته فى كلمات لا تبين،

- ال..ك.. ب ،،الكاالب ..

- تسارعت دقات قلبى،ما الذى أتى به إلى هنا ؟!،هل أتحول عن الشارع المعتادة السير فيه حتى أجده هنا ؟!،أيضًا ؟!.

كلب أجرب يعوى دائمًا يقولون أنه لا يعض !،يتتبع المارة فقط و يحاول التمسح بهم !،حاولت أن أتجلد وأخفى خوفى و أنا أقول لنفسى قبل أن أقول للصغير لا تخف يا حبيبى الكلب حلو و لا يعمل حاجة !.

وجدتهم فى الجهة المقابلة يضحكون و يسخرون منه،والأم بيدها كوز الماء واقفة بجوار الطست .

- تعالى يا ولد خلنا نخلص .

والولد الأكبر الذى كانت تحممه الأم معه يرقص عاريًا و ينثر الماءعلى إخوته المتشابهين الذين لا يمكن التفريق بين عمر كل اثنين منهم و قد انشقت عنهم الخرابة بعشتها المبنية بخليط من الطوب الأحمر و الصفيح و عروق

الخشب المغطاة بالمشمع ومخلفات البناء،بعد أن أيقظهم الصراخ و عواء الكلب الأجرب وصوت الضحك العالى وهم يصفقون و يطبلون و يخبطون على ما تطوله أيديهم من صفائح مهملة صدئة و صناديق كارتون ملقاة على الأرض على إيقاع كلمات أخيهم التى لا تبين،الجبان فى نظرهم،المرتجف هناك ..

-الكلب .. الكلب .. !.

حتى نسى الصغير ما كان فيه من خوف و صراخ و عاد برجليه،و أخذ يرقص مع أخيه الذى كانت الأم تحممه معه على نفس الإيقاع منتشيًا بعد أن هشت أخته المراهقة الصغيرة الكلب ثم جلست على حافة الخرابة ببنطلونها الجينز (المقطع) و بلوزتها الأنيقة !،و بيدها مرآة تمشط شعرها (المضروب أصفر) الذى تصمم من حين لآخر أن تصففه عند (الكوا فير) مهما كان الثمن مثلما أخبر أبوها إحدى الجارات ذّات مرة و هو منحنى يدعك السجادة فى منور العمارة بفرشاة البلاط والماء و الصابون !،وتهز قدميها المقشفتين المطلى أظافرهما بطلاء أحمر فاقع اللون بوردات ذهبية بارزة فى شبشب ذى كعب عالٍ !.

خفضت رأسى وهى تتفحصنى و تلوى بوزها بطريقة جعلتنى لا أشك فى أنها تعرفت على جيبتى - جيبة أختى الوسطى – كطريقتها المعتادة في اقتحامي في صمت.

و كأنها تقول ساخرة،(ويقولون باش مهندسة قال) !،خاصةً وهى غالبًا ما تأتى لقضاء بعض الحاجات لجارتنا فى الشقة المقابلة لنا و التى تغمرها بعطفها و مالها كغيرها من الجارات،و كثيرًا ما ترانا على طبيعتنا فى البيت وتأكدت من أن اللحم لا يزورنا إلا فى العيد وعلى فترات متباعدة،وأننا لا نملك الكثير من الأجهزة الكهربية التى لا غنى عنها حينما ترانا أنا وبعض إخوتى نتعاون فى حمل السجادة الكبيرة لنضعها على سور السلم لننفضها ؛فلا تمتد يدها لمساعدتنا فهى ترى أننا بخلاء و ليس لدينا ما نعطيه لها !،و لكننا نخجل أشد ما يكون الخجل عندما يعرض علينا عم دسوقى والدها الرجل الطيب أى مساعدة و يمد يده بالفعل و يحمل الحقيبة الثقيلة التى يجرها أخواى الصغيران عندما تقع منهما الأشياء على السلم عندما تشتد زنقة الامتحانات فى الثانوية العامة و الكليات و ينشغل أبى بأمى المريضة فأعطيه أنا عندما أفتح له باب الشقة ثمن إحدى الملازم التى كنت نازلة لتصويرها حالا و أنا أضغط على يده .

- هذه حاجة بسيطة يا عم دسوقى فرّح بها الأولاد ! .

ترانا فى ملابس البيت – خاصة –التى ليس بها عيب واضح نظرًا لأصابعى و أصابع أمى الفنية و مقصنا الذى نادرًا ما يخيب وتمر علىّ وعلى جميع إخوتى أحيانًا ولا تتحمل المرور على أى شخص آخر مهما كان فقيرًا محتاجًا ولكنها الأريبة،تتعرف عليها وتلوى بوزها فى صمت !،حتى أن أمى تتعب كثيرًا فى إخفائها فى أوراق الجرائد ثم وضعها فى أكياس بلاستيك سوداء ليرميها أبى داخل أبعد صندوق قمامة عن المنزل وليرحم الله (موضة سجادة القصاقيص) بعد أن بطلت وقد كانت أمى تتفنن فى صنعها فتجعل جميع الملابس القديمة قصاقيص تضمها سجادة !،وتعتذرضاحكة لصديقاتها وقريباتها عندما يطلبن منا المشاركة فى مشروع رسالة الخير الذى يدعى له فى الفضائيات لخدمة المحتاجين و إعطائهم ما يفيض عن حاجة الأغنياء بصورة لا تجرح كرامتهم و كبرياءهمم بأنها قد سبقتهم جميعًا بحسن استخدام ما لديها لصالح من يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف!.

أنيفة،جميلة هى ذات عينين جذابتين فى جرأة وترفع يزيدانها جمالاً،يسبقها عطر فاخر منعش .

- تحفة،ذوقها يجنن،من أين حصلت عليها ؟!،وهذه أيضًا ؟!،لا،لابد من التعارف السريع و الفورى لأعرف كيف أحصل على مثل هذه التحف الأنيقة،وهل هناك نوعيات أخرى كالأكسسوارات والأدوات و الحقائب ؟!،أم أنك قد وقعتى على كنز (الروشنة) و ستحتفظين به لنفسك ؟!.

وأطلقت ضحكة مرحة جريئة جذبت أفراد شلتها التى لا تختلف عنها كثيرًا وأنا أبتسم،بل أضحك من قلبى،لا أدرى أللأسلوب الظريف ؟!،أم للموقف،؟! أم لأنى سأحل كثيرًا من مشاكلى - مشاكلنا – دون عناء،فهي أروش فتاة فى القسم و شلتها،والحل قد وقع علىّ من السماء ؟!.

- انهالت الأسئلة و الطلبات و أنا أبتسم تارة و أصمت أخرى،و أحاول أن أجاريهم فى نكاتهم و قفشاتهم وهم يطلبون و يتفننون فيما يريدون .
- يجب أن نظل أروش شلة فى الدفعة كلها .
- وهل هناك شك فى ذلك ؟! .
- ألا تخبروننا من أين حصلت على هذه التحف ؟ . صناعة يدوية دقيقة،ليست صناعة مكينات تنسخ نسخًا متشابهة و تساوينا بالجميع،وهل هناك المزيد ؟ .
- بشرط ألا يشاركنا أحد - مهما كان- من خارج شلتنا،والتوقيع،لا تنسى التوقيع ،يجب أن يكون واضحًا على كل قطعة،ولك ما تطلبين و كل ما يطلبون .
- و أنهت هى الكلام فى ثقة و دلال،لا يهمنا نقودًا،المهم (الروشنة)لنا نحن فقط .
وصاحوا جميعًا ! موافقة ..
كل هذا و أنا أساوم و أحاول أن أجعلهم هم الذين يترجون و ينتظرون و أنا أتدلل،أصعب الأمر – وهوجد صعب - وهم يريدون الشراء و يحاول كل منهم أن يجتذبنى ليفوز بأعلى موضة مهما كان الثمن ،ولكن أى ثمن ؟!،وهل هناك أثمن من وقت و جهد أسرة يتصارع أ فرادها و يكافحون من أجل ساعة زائدة للمذاكرة،أو ساعة مختلسة فى نوم هادئ و استقرار بعد لقمة هنية تنشط الذهن و تقوى الجسم ؟!.
امتلأت حقيبتى بالنقود و قائمة طويلة عريضة بدقائق لا تنتهى،اكسسوارات و حقائب وحافظات و أجربة للموبايل و أحزمة مختلفة الألوان والأحجام،للبنات و الأولاد على أن تتناسب ألوان الميدالية وحقيبة البنت مع ميدالية و حافظة أوراق و دفاتر صديقها وأن يكون شكل و لون جراب المحمول للاثنين واحدًا كرناته،الاسم يكون واضحًا و باللون الروز لزيزى و مصطفى و الأصفر لشوشو و شريف،الأقلام منحوتة بدقة وروشنة و خطوطها رفيعة و عريضة و مزدوجة ،و..أما..ف..
امتلأ عقلى بحسابات لا تنتهى،هل ما فى البيت من خامات يكفى لإرضاء بعضهم فقط و ليس جميعهم بشىء بسيط ؟!،و متى سأدبر باقى الاحتياجات ؟! ،و..
حمدت الله ففي درجى بعض الأقفال و الأسلاك و الفصوص و لوازم الدلايات كنت قد اشتريتها من الموسكى و درب البرابرة والأزهر منذ فترة ولم لأجد وقتًا لإتمام صنعها ولن يمانع أخواى التوأم فى نحت دومتين وصنع ميداليتين آخرتين لا ميدالية واحدة لوسهرا عليها الليلة،قلبى ينبئنى أنهما قد قطعا شوطًا من الواجب فى الحصص الفاضية بالمدرسة و التى غالبًا لا يدخل فيها الفصل مدرس أو يدخل المدرس و يتركهم يفعلون ما يريدون بشرط أن يجلسوا مؤدبين فلا يرفعوا أصواتهم لتصل إلى المدير،شاطران هما دائمًا و مجتهدان .
أما أختى مها شهيدة الثانوية العامة كما يحلو لها أن تلقب نفسها فيكفيها ما سهرت لصنعه من حقائب فى الأيام الماضية – كانت فاتحة خير علينا جميعًا – و ملأت به المكان تحت السرير لتحصل على ثمن دروس اللغة الإنجليزية،ستفرح كثيرًا عندما يمكنها الحصول على باقى الدروس التى تحتاجها فى المواد الأخرى لتحافظ على تفوقها و تريح قلب أبى و أمى،بل قلوبنا جميعًا بالحصول على المجموع الذى يؤهلها للكلية التى تريدها،ثم .. لا شىء،وليأت من يقولون أن كله فى التمام وعال العال !،سبعون بنت – طبعًا لسن من أبناء الكبار - فى الفصل الواحد فى المدارس التى تحظى بالرعاية والاهتمام وأكثر من تسعين تلميذ فى الفصل الواحد و أحيانًا مئة وأكثر!،وعجبى على أصحاب الألسنة اللبقة الجريئة والابتسامات الواسعة وليذهب الجميع إلى الجحيم طالما أنهم فى النعيم ! .
سأمنعها ولو بالقوة لو صممت على مساعدتنا وترك مذاكرتها؛ فنحن فى عرض سنة تعدى على خير لتفسح المكان لمن يليها أو يسبقها .
الوقت تأخر،هل أذهب – حتى - إلى الجيزة فقط للحصول على بعض خيوط المكرمية و الجلود اللازمة والخامات المختلفة؟! أم أكتفى بشراء طعام لأسرتى و أعود للبيت و ليذهب أبى مع أختى الكبرى غدًا لشراء ما يلزم من أدوات ؟! أما أمى فليعنها الله على خدمتنا و إعداد الطعام هذه الأيام وهى المريضة ! .

رائحة الشواء من المحل القريب أيقظت فىّ الجوع حيث لم أتناول غير (ساندويتش) أعطاه لى أبى فى الصباح،الجوع حسم الموقف ؛ فاشتريت الطعام،عدت إلى البيت وأنا أتجنب الأماكن المظلمة و الهادئة خوفًا من القطط والكلاب الضالة،لا مفر من عبور هذا الشارع المظلم ليوفر الوقت للوصول للبيت مبكرًا قليلاً؛ فهذه الوجبة الشعبية التى رائحتها ترد الروح و لا شك ستسعدنا جميعًا ؛لكنها ستكلفنا سهرًا و عملاً طوال الليل و لأيام قادمة ! .

تمهلت قليلاً عندما التقطت أذنى صوتًا أعرفه يخاطب آخر و يحاسب سائق التاكسى و يترك له الباقى بقشيشًا فى سهولة و يسر من اعتاد العربات الملاكى،لا أدرى ما الذى جعلنى التفت إلى مصدر الصوت ثم أنحرف فجاةً شمالاً وأغير طريقى .

إنه نفس صوت زميلتى تلك(الروشة)التى لا تهتم بالنقود و هى تخاطب تلك السيدة المسكينة التى كانت تقف فى الطابور هذا الصباح بحميمية وتناديها ب يا(أمة) !..

****

الحذاء المفقود

لقد أنهكنى التعب،أريد الراحة و لو قليلاً،ارتديت ملابسى فى أقل من ثلاث دقائق،تركت البيت وسرت فى طريقى،أزعجنى الزحام فرغم حبى له لم أستطع مراقبة الناس والطريق و التسرية عن نفسى،أسرعت الخطى وأنا أتجنب عادم السيارات فأضع منديلي على أنفى واجتهد فى عدم التخبط فى الباعة الذين يفترشون الطريق ببضائعهم من الكتب و الكتيبات الدينية و شرائط الكاسيت والعطور و الأكياس التى ينادى بها أصحابها لمعالجة كافة الأمراض،تختلط نداءاتهم بنداءات سائقى السيارات (الميكروباص) وصبيانهم بأصوات الميكرفونات المنبعثة من المسجد الكبير بميدان الجيزة مع ضجيج ضخ الدم فى عروقى ونخس أفكارى التى تؤلمنى وأراوغها ووقع خطواتى المسرعة إلى حيث الملاذ والهدوء الذى أشتاق إليه،ولولا عنائى النفسى والجسدى وضيق الوقت المسموح به لى لواصلت المسير إلى شاطىء النيل ومنه إلى كوبرى الجامعة حيث السماء والنهر يطهرانى و يمدانى بشىء من السكينة أتزود بهما لأواجه (لا) و(ممنوع) المتوجين للقهر و الحرمان الممنوحين لأحد أبطال حروبنا المجيدة بأوسمته التى منحتها له الدولة مع غيرها من أوسمة الحرب و على رأسها الشظية التى فى ساقه مما أثر على مشيته فسببت له عرجًا يفتخر به افتخاره بالكرباج الصغير الذى أتى به من أرض سيناء والذى يجود به و يمنحه أهل بيته صغارًا و كبارًا بلا استثناء،حتى صار البيت ثكنة عسكرية يعتز قائدها بأبوته لهؤلاء الناجحين فى دروسهم وحياتهم،وان العصا لم تزل فى يده لم تقع،يرفعها على من يريد وقتما يريد،والويل كل الويل لمن يعترض أو يظهر الضيق- كما تقول أمى دائمًا - فهذا دليل على عدم الاحترام و أن على الأم الحريصة على بيتها و أبنائها ألا تتدخل عند أى مشاجرة مع الأب و أبنائه أو حتى بعدها لأن الأب لو كان غولاً فلن يأكل أبناءه كما يقول أحد الأمثال الشعبية التى تعتز بها و إلا لكانت هى نفسها سببًا فى فى هدم بيتها و تشريدنا،معرّضةً بإحدى جاراتنا التى تحاول منع زوجها دائمًا من إهانة ابنها الأكبر و طرده من البيت حتى طلقها وخرب البيت.

واصلت مسيرى و أنا فاقدة الثقة فى كل شىء،لا أدري أى السلوكين أفضل،ربما كان هناك سلوكًا آخر وحياة أفضل،لم تعد لدىّ القدرة على أدنى تفكير ساقتني قدماي إلى بيت الله أصلى ركعتين و أمكث قليلاً لعل الله يفرجها من عنده .

وصلت مصلى النساء،من الخارج وجدت بعض الفتيات يتسامرن خلف الستار،تركتهن و دخلت من الباب الداخلى،خلعت حذائى و أمسكته بيدى ودعوت الله أن يفتح أبواب رحمته،تلفت حولى أين أضعه ؟،وجدت المكان المخصص لذلك بعيدًا جدًا بحثت بعيني علنى أجد آخر،ابتدرتنى (أروى) كما ينادونها .

- ضعى حذاءك هناك بالخلف .
فوضعته كما قالت متحرجةً .
عندما وقع نظرى عليها لم أرتح لها إطلاقًا،ربما كان هذا سبب تلفتى بحثًا عن مكان آخر،بدأت صلاة ركعتين تحية المسجد،حاولت أن أخشع قدر الإمكان،لكنها حالت بينى و بين صلاتى،تمد ساقيها وقدميها على الجانب الذى تتكئ عليه شبه مضجعة عند موضع سجودى بطريقة ملفتة ثم تحرك إحدى ساقيها فيرتفع ذيل (جيبتها) فتحرك فخذيها الممتلئين بطريقة مروحية مستفزة ليس بها أدنى خجل أو حياء !،و أنا أستغفر ربى و أغمض عينىّ ثم أعود و أفتحهما و أعاود تلاوة ما سبق تلاوته تأكيدًا إلى أن انتهيت من صلاتى بمشقة،أما هى فقد ظلت على حالها بل زادت من رفع ذيل (جيبتها) الفيزون المنسلة الخيوط و صارت أكثر تكشفًا بفخذيها الممتلئين و حركتهما المتسقتين مع حركة يديها و فمها الذى ظل لمدة ساعة يمضغ طعامًا من حقيبة ثمينة ممتلئة بجوارها بالطعام و بما لا يعلمه إلا الله،أما وجهها فملامحه طفولية لكنها خالية من البراءة لم أعرف أهو وجه فتاة أم امرأة محنكة ذات جسد ممتلئ متهدل .
كانت تتحادث مع فتاة تبدو جامعية ترتدى ملابس ضيقة نوعًا ما تخفيها بغطاء رأس منسدل إلى مابعد الخصر من الشيفون الخفيف،لم يكن هناك أدنى تجانس بين الفتاة و (أروى) ولكن يبدو أن الفتاة لم تجد أذنًا صاغية لها غيرها،ربما كانت تقطع معها بعض الوقت فقط مثل الكثيرات ،لكنى لم أدر سببًا لانتهار (أروى) للفتاة الأخرى ذات الملابس الضيقة نوعًا ما التى تشبه ملابس الفتاة الجالسة معها بمجرد دخولها المسجد لأنها كما قالت لها صائحة :هذه الملابس لا تصلح للصلاة بها .
وأشارت إليها بارتداء بعض الثياب الفضفاضة (من الباتستة الرخيصة) غير النظيفة الموجودة على الكرسى فى أقصى اليمين لمن تريد الصلاة و ملابسها ضيقة أو مكشوفة .
أخذت أسبح فى سرى و أتلو بعض ما أحفظ من آيات القرآن الكريم،شعرت أن كل ما حولى يشتت انتباهى،رغم أن القاعة المخصصة للنساء هادئة الاضاءة جيدة التهوية فقد كانت الرائحة غير المستحبة المنبعثة من الموكيت المبلل بالماء من أثر الوضوء ولاستخدام الكثيرات للمصلى ليس للصلاة و العبادة وتلقى العلم فقط بل كمكان للنوم و تناول الطعام والمذاكرة و صالون للقاء و تمضية الوقت و..،ابتسمت ساخرة،يبدو أن البيوت التى ضاقت بفتياتها و نسائها أصبحت كثيرة !.
أذن لصلاة المغرب،قبل أن أترك مكانى للوقوف فى الصف التفت لموضع حذائى فوجدته،حمدت الله و قلت فى نفسى هأنا قد ابتعدت عن أروى و اطمأننت على حذائى فلأصلى و أناجى ربى حتى يطمئن قلبى وأهدأ نفسًا ففتح الله علىّ بالدعاء فى سجودى و انهمرت دموعى و انفكت عقدة لسانى،شعرت أن الله معى و الملائكة تؤمن دعائى واستغفارى،فجاة وأنا فى أول سجودى بين يدى الله فى ركعتيى السنة وجدت رأسى بين يدين قويتين تضغطهما بشدة فى الأرض حتى كادت جبهتى تنخدش و أنفى ينحبس عنه الهواء أما ذراعاى فقد كبلتا بجانبى و كاد مرفقاى أن ينغرزا فى الأرض و ضلوعى منضغطة بشدة ؛فشعرت كأننى كنت فى السماء مع الملائكة و هويت إلى الأرض مكبلة بالأغلال مرتعبة وسط الشياطين،أنهيت ركعتى السنة بسرعة و سلمت،فوجدتها،هى نفس المرأة بجسدها البرميلى المنبعج التى كانت تتمدد فى منتصف المصلى تحت المروحة متخففةً من بعض ثيابها و لم تكلف نفسها مشقة الاضجاع بجوار الحائط .
-هل هذه طريقة السجود يا أختاه ؟ !،ألا تضغطين جبهتك وأنفك فى الأرض لربنا يا ابنة المدارس ؟!،استغفر الله !.
ذهلت من جرأتها،بل من وقاحتها،و لم أجد مفرًا من الاعتذار بهدوء خاصةً و نحن فى بيت من بيوت الله ،وقبل أن تجمع حولى رفيقاتها ممن كن حولها لتستفتيهن فى خطئى الجسيم و استكبارى !،و لتشهدهن علىّ،دعوت لها بالخير و ذهبت لمكان آخر قريبًا من إحدى السماعات الداخلية لأسمع الدرس الذى يبدأ بعد المغرب ،كان صوت الشيخ رتيبًا هادئًا لم أتمكن من متابعته جيدًا وسط بعض النسوة اللاتى كن يتحدثن معًا و يعلقن على كل ما يتسلل إلى أسماعهن من الدرس .

حوّلت نظرى عنهن حتى أتمكن من متابعته،رأيت الفتاة الرقيقة التى كانت تجالس أروى حزينة قلقة تبحث عن حذائها فى كل مكان فأشارت عليها أن تشترى آخر غيره من أمام باب المسجد و بصوت رقيق حان و هى تطمئن الفتاة بأن هذا شىء عادى،نظرت الفتاة للأرض ولم تجب- لعدم وجود نقود معها على ما يبدو- ثم نظرت إلى ساعتها بقلق وهى تقول أنها ستتأخر عن البيت،و لا تدرى كيف ستحل هذه المشكلة،فأخذت أروى تبحث معها عن الحذاء عله يكون هنا أو هناك و ترفع حواف الموكيت بجوار الحائط و أسفل الرفوف المخصصة لوضع الأحذية بطريقة جعلتنى لا أشعر معها بأى راحة فراقبتها خلسة،وجدتها تخرج حذاءً آخر من حقيبتها بجوار تلك الرفوف ثم أعطته للفتاة على أنها وجدته فى المصلى وظل فى مكانه لم يسأل عنه أحد منذ فترة !،فشعرت أننى معرضة كذلك لمثل هذا الموقف،ويبدو أن المرأة التى كانت بجوارى كانت تتابعهما فهبت من مكانها فجاةً وأخذت حذاءها وارتدته و مشت به ناحية الباب؛فصاحت بها إحدى النسوة و زجرتها هى و رفيقاتها بصوت عال و همت إحداهن أن تمنعها بالقوة؛ فسبقتها المرأة بسرعة هاربةً وهى تقول كلامًا غير واضح ،أسرعت بأخذ حذائى وارتديته خارج الباب .

ما أن مشيت خطوةً واحدة حتى نظرت خلفى،استغفرت الله وأنا أتعجب من نفسى ومن كل شىء،أأخرج من بيت الله بهذه الطريقة ؟!،طفرت من عينى دمعة لم أستطع منعها،دعوت الله أن يصلح بيوتنا حتى يصلح عمّار بيته ومشيت هذه المرة إلى البيت بهدوء!.

****

امتحـــان

لم تكن تحب المشاركة فى أعمال المراقبة والملاحظة فى الامتحانات العامة،حاولت مرارًا الاعتذار عنها فلم تفلح،ضاق صدرها كثيرًا،حاولت التغلب على ذلك بالتشاغل بدندنة أغنية قديمة تحبها فضاع لحنها،استغفرت الله فى سرها و حسبنت على كل من كان السبب،أيقظت أولادها ليتناولوا ما أعدت لهم من إفطار معًا ولتراجع مع الصغيرة بعض دروسها،وجدتها مستيقظةً تتظاهر بالنوم وقد بللت فراشها،لا تريد أن تقوم حتى لا يشعر بها باقى إخوتها فهم سيسبقونها فى الذهاب لأداء امتحاناتهم واحدًا بعد الآخر وستبقى هى ،ربتت على شعرها و كتفيها وهى تقبلها،أيقظت الباقيين و شغلت كل منهما بعمل خارج الحجرة،غيرت لها الفراش ثم أخذتها للحمام.

- أنا خائفة جدًا يا ماما من الامتحان .
- أنت بنت حلوة كبيرة و شاطرة،فكيف تخافين ؟!.
- ستذهبون جميعًا و تتركوننى وحدى يا ماما !.
- لن تحتاجى شيئًا يا قلب ماما ؛ فقد ذاكرنا معًا كل الدروس أمس و أعددت لك أدواتك،المهم لا تتسرعى عند الإجابة،تأكلى كل السندوتشات التى فى الشنطة،عندما تعودين إلى المنزل افتحى الباب بالمفتاح الذى فى رقبتك وإياك أن تقولى لأحد أن معك مفتاح البيت،سأخفيه داخل ملابسك بحيث لا يراه أحد،لا تفتحى الباب إلا إذا سمعتى صوت أخيك،ثم عندما تأتى أختك هى الأخرى من امتحانها لا تفتحا الباب إلاإذا سمعتما صوتها،هات قبلة كبيرة لماما،لا،هذه قبلة دون نفس،أمازلتى خائفة ؟! .
- خلاص يا ماما،أنا بنت شاطرة و كبيرة ولست خائفة،لكن لا تقولى لإخوتى أى شىء .
- طبعًا يا حبيبتى .

تركتها بسرعة و ذهبت لإعداد نفسها للذهاب لامتحاناتها هى الأخرى و قلبها يتمزق،(البنت جاوزت السابعة و مازالت تبلل فراشها و كلما سألت طبيبًا أجابنى أن الأمر لا يتعدى حالة نفسية !،و كيف لى بحل هذه الحالة النفسية ؟!،أنا التى أعانى و أشعر أننى التى تؤدى جميع الامتحانات التى فى الدنيا !،و لا من مؤنس و لا رفيق !،لو كان لها دواء لبعت عمرى و اشتريته و لكن !،من لأخيها و أختها؟!،استغفر الله،لهما الله،بل الله لنا جميعًا .

وجدت ابنها يرقص أمام المرآة رافعًا صوت المسجل عاليًا حتى أنه لم يسمعها عندما نادت عليه وابنتها الكبيرة غاضبة تحاول صرفه عن المرآة حتى تكمل ارتداء ملابسها،فصلت فيشة الكهرباء ثائرة.

- حسن جدا و كأن لا شيء على بالكما !،ألا تراجع قليلاً قبل ذهابك للامتحان ؟!،و أنت،انته سريعًا من ارتداء ملابسك تلك حتى تجدى وقتًا لتناول الإفطار،ألا تراعيان ما أنا فيه ؟!.

- اهدئى يا أمى،كنت أخفف عن نفسى قليلاً،وعنكم أيضًا.

- خففوا أنتم جميعًا عنى و انجحوا فى امتحاناتكم بأعلى الدرجات،والله يا أولاد أبوكم رحمه الله كان رجلاً صالحًا،أريحوه فى نومته بتفوقكم،وإياكم و الغش،هذه وصيته .

- لماذا نحن بالذات يا ماما الذين لا نغش ؟!،الكثيرون يعتبرون هذا شيئًا عاديًا.

- على العموم يا ماما نحن اجتهدنا بقدر الإمكان و عملنا ما علينا ،فما المانع من أن نراجع مع زملائنا أو نحاول تذكر شيء مع بعض أو..

- ليس هناك أى (أو)،إن لم ترضونى ارضوا والدكم رحمه الله خلوا ربنا يرضى عنكم يا أولاد.

أخذت تبكى فى صمت،التف حولها الولد والبنت،قفزت الصغيرة و جلست فى حجرها،لا تبكى يا ماما،لا تبكى،نحن ليس لنا أحد فى الدنيا غيرك يا ماما .

- يا ماما أنا لم أنم جيدًا أمس.

- و لا أنا،حتى أنك ستخرجين الآن و ستتأخرين طوال اليوم،استأذنى يا ماما و ارجعى بسرعة و النبى لأجل خاطرى،أيجب أن تكون هذه الامتحانات جميعها فى وقت واحد ؟!.

تحاملت على يد المقعد وقامت بسرعة.

- آه،لقد كدت أنسى نفسي معكم،لقد تأخرت،يجب أن أذهب،اهتموا ببعضكم البعض،لقد وضعت لكم غداءً و عشاء فى المطبخ،كلوا جيدًا و لا تنتظرونى،ثم استدركت و هى تضم قبضتها و تبسطها داعية الله متمنيةً عليه،فلربما أكرمنى الله وعدت قبل الحادية عشرة مساءً ربنا معكم يا حبايبي .

أخذت حقيبتها و نشفت دموعها وهى تجرى نحو الباب.

أغلقت الباب و نزلت السلم بأقصى سرعة تسمح بها ركبتاها المتعبتان،وصلت ناصية الشارع مهرولة حتى تلحق بعربة توصلها المدرسة التي بها لجنة الامتحان،تذكرت أن عليها ركوب مواصلتين أخريين ،كانتا في الماضي لنقل المواشي والآن تستخدمان في نقل البشر ؛عبارة عن صندوق مغطى بالخيش و الأكياس البلاستيك فى أفضل الأحيان أو مجرد سطح فقط بأعمدة حديدية بوجه مقطب بشدة غضبان من كثرة الكدمات و الخدوش دون أرقام يسير بأربع عجلات بالجاز و ليس بالبنزين يقوده صبى لا يتجاوز عادةً الخامسة عشرة من عمره و غالبًا أصغرمن ذلك بكثير،لا يتحكم فيما يقوده إطلاقًا،يتراشق مع زملائه فى الطريق بأبشع الألفاظ و التعليقات،لم تصدق زميلتها عندما همست فى أذنها بهذه المعلومة عندما كانت تصف لها الطريق المؤدى إلى تلك اللجنة حتى لا تتوه .

و ها هى قد صدقت الآن !،ضحكت فى نفسها عندما تذكرت مسؤلاً فى التليفزيون يقول : إننا نسيطر على الحركة المرورية الآن و لا نسمح بتسيير عربات غير آمنة أو بدون رخص و أرقام،وهذه الصناديق والرفوف بماذا تسمى إذًا؟!.

حشرت نفسها وسط أولياء الأمور الذين يسدون باب المدرسة بصعوبة و هم يفسحون لها الطريق و يوصنها بأن تجعل اللجنة حلوة و لا تنشفها عليهم،و تنجحهم فهم كأولادها ويجب أن تساعدهم !.

تعودت أن ترد بابتسامة فقط و تدعو الله فى سرها أن ينجيها منهم عندما يكتشفون أنها ممن لا يغششون و لا يسمحون بالغش،فكرت فى أنها يجب أن تتغيب عن عملها باللجنة اليوم الأخير وليحدث ما يحدث !.

- أهلاً بالأَبلة المحترمة،الساعة كم الآن ؟!،

انتبهت للصوت الذى يخاطبها،لابد أنها رئيسة اللجنة أو أحد أعوانها،تلعثمت قليلاً و هى ترد .

- صباح الخير يا أستاذة،معذرةً،بيتى بعيد و المواصلات صعبة جدًا،ألا يكفى يا أن جميع الامتحانات ابتدائية و إعدادية على التوازى،جميعها فى نفس اليوم،والله هذا ظلم !،حتى التصحيح ألزمونا بأدائه بعد اللجان مباشرةً دون مراعاة للمواصلات و المسافة بين لجنة و أخرى،أليس لنا أولادًا يمتحنون كلهم فى نفس اليوم ؟!،أنحن ماكينات تعمل بلا انقطاع ؟!،حتى الماكينات تفصل و تتوقف عن العمل بنفسها إن لم يفصلها أحد ! .

لان صوت رئيستها قليلاً،بعد أن حاولت أن توقفها عدة مرات فلم تطاوعها نفسها .

- نعم هذا و الله ظلم ! ولكن من يسمع ؟!.

ثم تداركت نفسها و أكملت بحزم:-

- لن أسمح بأدنى تأخير ثانيةً،أى تأخير بيوم غياب وجزاء،أنت تعلمين ماذا أعنى،يوم الغياب سيؤثر على مكافأة الامتحانات،هذه قرارات جاءتنا من فوق،مرّى على الأستاذ الوكيل ووقعى بالعلم .

وقع قلبها فى قدميها،و ماذا سأفعل آخر يوم للامتحانات ؟!،ربنا يستر !.

دخلت اللجنة،حيت التلاميذ و أدت عملها كما ينبغى بهدوء،توسم فيها التلاميذ الطيبة فحاولوا إخراج ما معهم من (برشام) و مذكرات و..،فردتهم بحزم ووضحت لهم جميعًا أنهم مثل أبنائها الذين يؤدون امتحاناتهم الآن مثلهم و على كل منهم أن يجيب عمّا يعرف أولاً ثم يفكر فى الباقى و،قطع عليها أحد زملائها أنهم يريدونها فى الإدارة بأسفل ،فرفضت إلى أن ينتهى وقت اللجنة،تدخلت زميلتها المشاركة لها فى نفس اللجنة .

- و أنا يا أستاذ ألايطلبنى أحدًا؟!،و نظرت إليه نظرة ذات مغزى،البركة فى الأبلة،أنا حتى لم أتناول إفطارى إلى الآن !.

سارعت بالرد : تفضلى يا أبلة أنت والله هو المعين،بالهناء و الشفاء مقدمًا.

أرادت أن تبدو كمن تجامل زميلتها بلطف ورقة وأنها غير مهتمة بتركها بمفردها فى اللجنة التى يصعب على مدرس واحد التحكم فيها بمفرده .

جاءها زميل آخر حيّاها وفى يده كوب من الشاى تفوح منه رائحة النعناع اللذيذة .

- كوب شاى يعدل المزاج،تفضلى يا أبلة،صحيح الأولاد غلابة و يقاسون رهبة الامتحان لكنهم يشعرون بهذا الآن فقط،أما طوال الوقت فكأن لا شىء على بالهم،غدًا الأيام ستعلمهم !،أما نحن،(وضحك فى مرح)،فأغلب من الغلب نفسه وكأننا فى لجنة امتحان لا تنتهى،تفضلى يا أبلة الشاى قبل أن يبرد .

نظرت لكوب الشاى بتشهى فقد كان الصداع يلاحقها بمطارقه،لكنها اعتذرت برقة حتى لا تتحمل تبعات ذلك !،لكنه بذكائه لم يظهر اهتمامًا.

-على فكرة لماذا تشدين على هذه اللجنة يا أبلة ؟!،المساواة فى الظلم عدل،ألا تسمعين هذه الأصوات ؟!،إن اللجنتين اللتين بجوارك على راحتيهما منذ أول الوقت وسيجمعون أوراق الإجابات خلال دقائق وسيذهبون .

آثار ضيقها فهى تعلم جيدًا أن الأولاد مازال لديهم الأمل فى أن السماء ستنفتح و تمطر غشًا ؛لذلك فلن يسلموا أوراقهم و ينصرفوا إلا فى نهاية الوقت المحدد للامتحان،لذا عليها الانتظار ساعةً أخرى كاملة لن تجد فيها دمًا فى عروقها حتى يحترق!.

لم يتركها هذا الزميل لنفسها و أخرج من جيبه ورقة صغيرة بها كل الإجابات،قائلًا لها بصراحة يحسد عليها.

- إن لم تردى أن تعطى جميع التلاميذ الإجابات كلها بالعدل فلتعطيها التلميذ الطويل الذى يجلس فى ثالث مقعد على الشمال فقط فهو قريب وكيل الإدارة التعليمية و حتى لا يصل إليهم هناك أننا (نشد) - و شدد على مخارج الحروف وهو ينطق هذه الكلمة - ونقع جميعًا فى مشاكل نحن فى غنى عنها.

شعرت أنها محاصرة،تذكرت أولادها وماذا يلاقونه الآن ؟،وهل نفسياتهم مرتاحة أم لا ؟،وهل ؟..

اشتد الصداع برأسها حتى لم تعد تحتمل معه أى نقاش أو جدال،خانتها الابتسامة التى تحاول أن تحل بها كثير من المشاكل هذه المرة فلم تطاوعها،ضغطت على نفسها لم يعد صوتها ودودًا وإن حرصت على أن يكون منخفضًا،حاولت النظر إلى الأرض و إلى الأشياء من حولها كأنها لا تهتم .

(الدادة) تحمل الماء للتلاميذ و تنظر إليهم بإشفاق و تمصمص شفتيها .

- كان الله فى عونكم يا أولاد .

ثم وهى تنظر إليها و كأنها تنصحها أمامهم،فكّيها يا أبلة عليهم - فهم كأولادك - يفكها الله عليك،أولياء الأمور بالخارج سيقطعون أنفسهم،اللجان من حولك أكثرهم مرتاحون ،غشوا و انصرفوا بعد نصف الوقت،لماذا هذه اللجنة بالذات ؟!،سكبت باقى الماء بعنف على الأرض،انصرفت غاضبة و هى تتمتم بكلمات تعرّض فيها بها .

تبقى على انتهاء الوقت المخصص أقل من نصف ساعة و التلاميذ ما بين راض و ساخط،هم يعلمون جيدا مستواهم الضعيف ولكنهم يريدون النجاح بأى وسيلة وكأنها حرب يجب أن ينتصروا فيها،هدّات من أعصابهم وعادت إليها ابتسامتها الودودة وكلماتها المشجعة .

- أنتم أفضل من غيركم لأن لديكم الحافز الشديد للمذاكرة حتى لا تتعرضوا لهذا الموقف ثانيةً و سيقف الله معكم لأنكم لم تغضبوه سبحانه .

استسلم البعض والبعض الآخر ظلوا ساخطين يراقبون توترها و شدة الضغط عليها،يترقبون من سينتصر فى النهاية وإن شغروا بتعاطفهم معها ورضوا بالأمر الواقع فهى على الأقل قد ساوت بينهم جميعًا،حتى زميلهم الموصّى عليه دائمًا من الجميع عاملته مثلهم تمامًا فشعروا بأن شيئًا من كرامتهم قد رد إليهم .

انتهى وقت الامتحان،جمعت الأوراق،تركت ولدين استسمحاها دقيقتين فوافقت عن طيب خاطر؛ فقد ذكراها بابنتها التى لا تثق فى إجاباتها إلا بعد وقت طويل وطول تردد فابتسمت .

جاءها زميل كبير السن بوجه بشوش ليطمئن عليها .

- أتحتاجين شيئًا ؟،لقد انصرف الجميع !،والله يا أبلة لقد شققتى على نفسك وعلى التلاميذ،لم يكن هناك أى داع لهذا كله،سينجحون،لا تسألى كيف ؟!،أنت تعرفين ذلك جيدًا،وهل كثيرون ممن نجحوا يستحقون النجاح ؟!،خفضت رأسها فى تسليم ؛ فواصل كلامه.

- إننا نفعل ذلك من أجل أمهاتهم وآبائهم فهم يشقون و يتعبون من أجل سماع كلمة ناجح و كأنها الجنة !،صحيح هؤلاء الملاعين أكثرهم لا يستحقونها لكنهم سيأخذون شهادة كى يعملوا بها أو يلتحقوا بأى تعليم فنى مسائى أو صباحى على الأكثر حتى لا يتشردا فى الشوارع من جهة وحتى تتخلص منهم إدارة المدرسة و لا يؤثروا على نسبة النجاح فيها و يعرضوها للمتاعب وأنت سيدة العارفين،ما باليد حيلة !.

استمعت لكلامه و هى تصدقه من كل قلبها وإن كانت نفسها الثائرة تأبى الاستمرار فى الهوان لهؤلاء الصغار الذين لا يدركون خطورة ما هم فيه،رفعت رأسها،وجدت نظرة غريبة فى عينيه وهو يودعها منصرفًا،

- انتبهى لنفسك عند خروجك من المدرسة يا أبلة،ربنا معك،لقد عملنا كل ما قدرنا الله عليه .

تعجبت للهجته،جمعت ورقتى التلميذين المتأخرين وضمتهما للدفتر الكبير معها،ثار التلاميذ ،تدافعوا فى الكلام و الصياح .

- يا أبلة،باقى ورقة إجابة ثالثة مع فاخر !.

- والله هذا حرام،هذا ظلم .

- واليتيم يا أبلة أليس له حظ ؟!.

- لقد سحب الأستاذ المشرف أثناء مروره ورقة (فاخر،ابن العز يا أبلة) دون أن تشعرى بعد أن قمتى بعد الأوراق و أعطاها له مع ورقة البرشام منذ وقف الاستاذ يتكلم معك آخر مرة بصنعة لطافة دون أن تشعرى.

- لقد حاولوا كثيرًا،لكن هذه المرة ضحكوا عليك يا أبلة !.

- ترى هل سينجحوننا نحن أيضًا بطريقتهم الخاصة أم ما ذا؟،

اشتد غضبها،نزعت الورقة منه بقوة .

- خلاص يا أبلة،كان من الأول !.

وخرج أمام زملائه متبختراً كطاووس رافعًا رأسه و هو ينظر إليها بشماتة و انتصار،أحاطها الأولاد و هى تعيد جمع الأوراق مرة بعد مرة لتتأكد من سلامتها .

- و لماذا لا ينجح دائمًا حتى إن كان لا يفك الخط إلا بصعوبة ؟! يابخت من كان الوكيل قريبه !.
- حيلة أبوه،هاها،و لكن ليس أى أب !.
- المهم أن له أبًا.
لم تملك نفسها من البكاء و هى تسلم الأوراق جميعها للأستاذ المشرف .
-أهذه زمالة ؟!،أهذا احترام ؟،أين التعليم ؟!،لقد غشنا من فوقنا و ضيقوا علينا حتى وصلنا إلى هذه المهزلة! .
- لقد عملنا لك معروفًا و سنتكفل بالباقى،هاها،يمكنك الانصراف أمامم الجميع بهدوء و لن يمسك أحدهم بأى سوء،هاها،اطمئنى . لكن لا تكرريها ثانيةً .
****

أمومة

سامحها الله،ألا يكفيها حرمانى و ألم السعى و أوجاعه حتى تحرضه علىّ و لم يبق لى من الدنيا سواه ؟!.
- أرضك بور يا بنى بذرتها و رويتها و لم تثمر،احرث أرضًا غيرها،و يعوض عليك ربنا .
- و لكننى أحبها يا أمى و لا أستطيع الاستغناء عنها .
- كثيرون قالوا ذلك قبلك يا بنى واستغنوا وأغناهم الله،الأبناء عزوة،اتعب اليوم يريحونك غدًا،و قد رزقنى الله بك على كبر،ولم آت لك بأخ يسندك فلا تحرمنى رؤية أبنائك يا ابنى .
- الحمد لله أنك قلتيها بنفسك يا أمى،فالأبناء رزق من الله .
- أتعيرنى يا ولد ؟!،أم تعصانى ؟!،بالأمس كنت مقهورة لا حيلة لى و اليوم تستطيع أنت تحقيق حلمى و حلمك بالأبناء .
- وحنان يا أمى أليست مقهورة لا حيلة لها ؟!.
-..

رأيت صورتها منعكسة فى زجاج الشباك وهى تشيح بوجهها بانزعاج باكيةً رافضةً مجرد النظر لابنها و مهددة له بعدم رضاها عنه،وهو يتوسل إليها و يحاول أن يخفض صوته و يقبل يديها وهى تتأبى عليه حتى خرّ على ركبتيه واضعًا وجهه فى حجرها وهو يبكى،لم تهدأ وتربت على كتفيه و تمسح على شعره إلا بعد أن قال لها أنه سيفكر بجدية فى الأمر،أما هى فستعود إلى البلدة ،لن تقضى معنا شهر رمضان كالمعتاد لتتمكن من البحث بروية عن الزوجة الولود الودود التى تسعد أيامه بالعيال و تقر عينها بسعادته.

قبل أن تنهى كلامها كنت قد مسحت دموعى بسرعة و أسرعت إلى حجرتى على أطراف أصابعى لأكمل زينتى و أخفى أثر دموعى بمزيد من الزينة ،تعمدت أن أرتدى أجمل ثياب يحب زوجى أن يرانى فيها،لم أنس العطر المفضل لديه،أعددت كل شىء و كأن شيئًا لم يكن،رفعت صوت المسجل بأغنية حالمة كم جمعت بيننا،تأكدت من إغلاق باب حجرتنا،أما زوجى الحبيب و طفلى الكبير فقد خرج من عند أمه بعد أن نامت مستقرة،دخل الحمام مباشرة و اغتسل جيدًا و أطال مكوثه فى الماء علنى أكون قد نمت،ثم جاءنى متعللاً بأثر السهر و رفض تناول سحوره لأنه قد تناول شيئًا خفيفًا و سينام فلديه عمل فى الصباح الباكر،قبل أن ينهى كلامه التقت عينانا رغمًا عنى و عنه،وجد كلاً منا نفسه محتويًا الآخر لائذًا به،اختلطت دموعنا و نحن نؤمن فى قرارة نفسنا أننا روح واحدة في جسدين .

جاء الصباح سريعًا و ذهب لعمله وآثار السهاد و الإرهاق و الهم تغرقه فى بحورها،تعثرت الكلمات بين شفتيه وهو يودعنى فلم يدر أأذهب إلى عملى فلربما شغلنى عما أنا فيه ؟أم أظل فى البيت لأريح أعصابى ؟،و لكن كيف و أمه تلازمنى ؟!،فاكتفى بأن ربت على يدى و قبلها و هو يرجونى أن أنسى أى شىء واهتم بنفسى فلن تستطيع أى قوة أن تفرق بيننا إلا الموت،ثم يبتسم،و لا حتى الموت !؛فبعده سنكون زوجًا و زوجة فى الجنة،أغلق الباب خلفه و أنا أدعو الله من كل قلبى أن يحفظه لى،و لكن دعاء أى قلب سيجيبه الله ؟!.

دخلت حجرة حماتى لأرى إن كانت تريد شيئًا ؛ وجدتها نائمة فى هدوء و شبح ابتسامة على شفتيها و كأنها تحلم بابنها مع زوجته التى انتقتها له،الولود الودود و أطفالهما من حولهما يتقافزون ويملأون عليهما الدنيا فرحًا و مرحًا ،و أنا ؟!.

أين مكانى بعد هذه العشرة الطويلة ؟،أترى أنها نسيتنى و نسيتها كما أنسيت سنوات حرمانها الأولى من الإنجاب و ألم السعى و أوجاعه ؟!.

لست أدرى،تتابعت الأسئلة و الأفكار كمطارق تطحن رأسى و تعتصرنى،تركت الغرفة و حمدت الله على أنها ما زالت نائمة فلن أتحمل مواجهتها بعلمى بما حدث و لا بجهلى به،ارتديت ملابسى على عجل و اخترت ثيابًا لا تبدى رشاقتى الملحوظة التى أحافظ عليها من أجل زوجى،طفلى الكبير فقط والتى تحسدنى عليها الكثيرات و لكنى أحب أن أبدو كسيدة متزوجة و أم أنجبت كثير من اللأطفال فى ملابس لا تظهر هذه الرشاقة؛فلا أسمع عبارات الإطراء الممزوجة بالغيرة من الأخريات مثل (كأنها ما ذاقت الزواج و متاعبه)،(طبعًا،ولماذا لا تكون رشيقة مدورة البطن فى رقة ناعمة النهدين وهى لم تر حملاً و لا ولادة و لا رضاعة،عينى علينا نحن من نكابد آلامًا لا نهاية لها،) تحسست جسدى من خلال ملابسى و نظرت فى المرآة فاطمأننت على الشكل المطلوب.

نزلت الشارع،وجدت عربتى أمام باب العمارة فلم أشأ أن أركبها اليوم و فضلت السير،سمعت غناءً عالى الصوت فى خلاعة و ضجيج صادر من مسجل أصر صاحبه على إزعاج الناس دون حرمة لهذا الصباح المبكر من شهر رمضان الكريم،اصطدمت عينى بالمسجل اللعين الذى يصك صوته الآذان بسمعاته الكبيرة متدليًا من يد قوية، يتجاوب صوته مع صوت طرقات قدم ضخمة مفلطحة فى (شبشب)خفيف على أرض الطريق،لم ينس صاحبها أن يشمر ساقيه الغليظتين المتسختين كباقى جسده و ملابسه فى ألفة جعلتنى أرفع رأسى لأرى من يكون هذا الشخص ؟! عرفته،إنه هونفس الصبى الصغير ضخم الجثة الذى كان ينام مع زملائه على سورشاطئ ترعة الزمر صيفًا و شتاءً و يضرب الأولاد من حوله بشدة و يغتصب طعام (الفواعلية) الذين يشاركون هؤلاء الصغار مقرهم فينتظرون إلى أن يأتيهم من يطلب بعضهم للعمل باليومية،حمدت الله أنه لم يلتفت إلىّ ومشيت مضطربة،لقد تجرأ هؤلاء الصغار على حينا الهادئ و انتشروا فى شوارعه و نواصيه حتى صار أصحاب المحلات وسكان الأدوار السفلى من العمارات المجاورة يخشونهم ؛فعرفت الآن فقط سبب هدوء الشارع فى ليالى الخميس التى كان يزينها الأطفال بألعابهم و ضحكاتهم وأنا أتابعهم من الشباك بعد أن كنت ألعب مثلهم و أنا صغيرة .

عبرت شريط القطار لأستقل تاكسيًا لمقر عملى ،لكن وجدت فى نفسى عدم رغبة فى الذهاب للعمل اليوم فأعصابى لن تحتمل المزيد،فضلت أن أتسوق ثم أذهب لزيارة أمى وأعود فى موعد انتهاء العمل،و لكن لا مفر من المرور على سور حديقة المحطة،تعمدت أن أسير بجوار المحلات إلا أن عربات التاكسى كانت تنتظر المسافرين و تسد الطريق ويقوم سائقيها بتلميعها أو شرب الشاى وهم يتضاحكون و يلقون بتعليقاتهم و نظراتهم على الغاديات والرائحات ؛فسرت فى منتصف الطريق،ثم انحرفت يسارًا لأتفادى عربة يقودها أمين شرطة صغير السن بحركة استعراضية فى مرح قبل أن يأتيه قائده ليعطيه التمام،لمحت عينى طفلاً صغيرًا يزحف و يتكئ بيديه الصغيرتين ليصعد الرصيف وهو يبكى حتى صعده بمشقة فشعرت بغصة فى قلبى لهذا الملاك الصغير فى لون التراب والذباب مستكين على وجهه و كأنه وجد الأمان لدى من لا يستطيع هشه،تحسست صدرى فى حركة لا شعورية أخفيتها بتسوية الطرحة على صدرى و كتفىّ و أنا أرى الصغير يحاول الوقوف متسانداً على فتاة لا يزيد عمرها عن أربعة عشرعامًا ،يبحث بأنامله الرقيقة و فمه عن ثديها من خلال فتحة صدرها الكبيرة،ظل يمص دون أدنى محاولة منها لتغيير جلستها وهى فاتحة ما بين ساقيها ثانيةً ركبتيها و بيدها سيجارة مشتعلة وهى غائبة عما حولها .

اشتعل قلبى و صممت أن يكون هذا الطفل طفلى مهما كان الأمر !،وأن تكون أمه - الطفلة - فى رعايتى !، دخلت سوق الجيزة فى نشاط و اشتريت كل ما أستطيع حمله من فاكهة و حلوى لهذه الطفلة وزملائها،ولمّا عدت وجدت زحمة و ضوضاء،اقتربت،وجدتها تصرخ و تهذى و لسانها ثقيل بكلامٍ مكسرٍ،عيناها زائغتان يسكنهما الألم و الحيرة،تخمش وجهها و صدرها ولاتدرى ماذا تفعل ؟،ثم تنظر للصغير المسجى أمامها فى رعب،تسحبه من

أسماله البالية وتحاول جره بعيدًا تاركةً الناس وهى تشيح لهم بأن يتركوهما لحالهما وتسبهم سبابًا مقزعًا لاتكاد حروفه تبين ؛فهجم عليها أحدهم وانتزعه من بين يديها و هو يهزها بعنف.

- لقد مات ،أفيقى،لقد وجد علبة الهباب !،- الكلة هذه- مفتوحة قليلاً على الرصيف فظل يشمها حتى مات .

صعقت وألقيت كل ما فى يدى وأنا أبكى ضناى بحرقة،ابنى ضاع،حتى هذا الابن يا ربى ضاع !.

هجم ماسحى الأحذية و ماسحاتها من أولاد الشوارع يتخاطفون الأكياس و يأكلون ما بها،اقتربت منى فتاة منهم خمرية اللون عيناها ساحرتان قائلة :

- شحرورة العبيطة تبكى على ابنها،و أنت ما دخلك ؟!،إذا كنت تريدين البكاء فابكى علينا نحن،و تمصمصت فى سخرية ثم برقت عيناها و هى تتفرسنى من أسفل لأعلى و تطرقع (بلبانة) فى فمها وترقص حاجبيها مع كل حركة أو كلمة .

- هل أنت يا ست كنت تريدين هذا الابن لك ؟ أليس لك أبناء ؟!.

صمت وأنا أنظر إليها متعجبة،فابتسمت بخبث وتثنت فى خلاعة .

- إذًا انتظرى تسعة أشهر فقط و أنا سآتيك بأحلى منه،و لكن كم ستعطيننى ؟!.

****

أونطة

وقف فى مدخل شقته يصلح بعض الكراسى و الأدراج المتآكلة مرتديًا بيجامته القديمة،مشمرًا عن ذراعيه وساقيه أسفل الركبتين و فى قدميه (شبشب بلاستيك) ملصق من أحد جانبيه بمسمارين صغيرين لا يظهران،لكنهما يحكان فى قدميه بطول الوقوف،مما يجعله يقلقل إحداهما تارة ليريح الآخرى ويفكر فى وجوب إصلاحه بعد انتهائه من هذا العمل ،وزوجته تصيح به من الداخل .

- ريقى نشف من كثرة الكلام،لا أطيق رائحة الغراء،اخرج إلى البسطة أمام باب الشقة ورد الباب وراءك،ربنا يتوب علينا مثل باقى الناس ونشترى الجديد،الطقم اشتكى كثرة الإصلاح،ارحمه .

يذهب إليها محاولاً تهدئتها بما حفظته عن ظهر قلب.

- طقم الأنتريه هذا قد ورثته عن المرحوم والدى الذى نعيش جميعًا فى خيره إلى الآن،عزيز علىّ،من رائحته،ولا أستطيع التفريط فيه ! .

- أتكون قد فرطت فى أبيك حين مات ودفنته ؟ !،يا أخى اعتبر أنه و باقى أثاث الشقة الذى لم نغير منه قشة واحدة منذ تزوجنا وهو عزيز عليك كما تقول قد مات ألا تدفنه و تشترى غيره ؟ !،ارحمه وارحمنى،بناتك صرن عرائس ينتظرن الزواج.

شعر أنها على حق ولم يجد كلمات يطيب بها خاطرها إلا أن يمنيها بأنه ربما رحل ساكن قديم عن شقته التى يستأجرها ويؤجرها بعد ذلك بالمدة فقط !.

- يرحل عن الدنيا ولا يرحل عن شقته،سيساوم عليها ملك الموت إن لم يجد له وريثًا ولن يتركها لك !.

آثر الصمت و قبل أن ينصرف شدته بخفة من ذراعه .

- طيب،يا أبا محمد أعطه إلى الأسطى محمود النجار على ناصية الشارع يصلحه بدلاً منك،على الأقل سيصلحه بصورة أفضل و سيدهنه و يخفى هذه الشقوق التى فشلت مرارًا فى سدها .

- أسطى محمود النجار ؟!،وهل الأسطى محمود النجار فى مهارتى ؟!،سترين إن شاء الله .

- صحتك يا أبا محمد،صحتك،أنت لم تعد تتحمل هذا الشقاء .

فيرد عليها من خلال سعاله وهو يخبط على صدره .

- أنا بمب والحمد لله .

تضطر زوجته أن تصمت فى استسلام وترفع يديها وهى تدعو الله .

الفرج من عندك أنت يا رب،ربنا على الظالم،أيا رب بعد أن كنا أصحاب عمارة طويلة عريضة تدرّ دخلاً شهريًا يجعل اللحم والخضار لا ينقطعان من عندنا أبدًا و بيتنا مفتوح للبعيد قبل القريب ؟!.

- صدقتى والله يا أم محمد،أمعقول أن يكون إيجار الشقة فى هذا الحى الهادىء المكونة من أربعة مطارح واسعة بمنافعهم ومدخل كبير و شرفتين تشرحان القلب،فى الستينات مقداره ثمانى جنيهات نشترى بهم أكثر من عشرة كيلو من اللحم الممتاز بلوازمهم يخفض بقرار اللجنة المشؤم إلى أربعة جنيهات فقط يظل عليها حتى الآن ومن يعرف ؟!،ربما ظل مائة سنة قادمة،عندها لن يشترى حتى باكو لبان واحد ؛ فالعمارة مازالت شامخة سليمة،لقد بنيت أيام الرخص،أيا الجنيه الجبس هاها !.

- يا الله !،همّ يبكى وهمّ يضحك،كانت أيااام !.

تركها وخرج ليواصل عمله .

رآه،(لحاف) لونه فزدقى مزهزه منقوش بخيوط ذهبية و فضية مطبّق عدة طبقات،تنام عليه (مخدتان) تتزينان بطراوة الحداثة و بهائها ،يحملهم صبى الشيال فى سعادة وخلفه مدام سناء على السلالم .

- إياك يا ولد أن تقترب من الحائط حتى لا يتسخ شىء مما تحمل،فهذا جهاز عريس،ليس أى عريس، ونظرت إليه فى زهو .

- العقبى لأولادك يا أستاذ اسماعيل .

ورنت زغرودة كلها ثقة وتعالى،وقفت على البسطة كأنها ترتاح من طلوع السلم،وجدت بعض كراسى (الأنتريه الأسيوطى) القديمة مكفأة على ظهورها و جنوبها تظهر منها أماكن الكسر و الخلع،بعضها تفوح منه رائحة الغراء،تأففت و مصمصت شفتيها،نظرت من بئر السلم و نادت صبى الشيال الثانى وهى تشير بيديها الممتلئتين بأساور الذهب و خواتمه متعددة الأشكال .

- على مهلك،بالراحة على (الأنتريه)،إنه غالى جدًا،إياك أن يحتك بالسلم حتى لا يخدش .

انتظرت إلى أن مر صبى الشيال حاملاً أحد المقاعد الوثيرة أمامه وهى تنقل نظرها بين الطقم القديم الذى يحتاج إلى الإصلاح وما يحمله صبى الشيال .

- الأسعار نار والله يا أستاذ إسماعيل و السلع كلها فى الطالع،لكن الغالى ثمنه فيه،أهن قرشك و لا تهن نفسك أم ماذا يا ست أم محمد ؟! .

قالتها وهى تبحلق فى الشقة بقرف عندما لمحتها أم محمد وهى آتية من الداخل ؛ فردت عليها و كأنها ضبطتها تتلصص على شقتها :

- زواج مبارك يا أم خالد .

وجذبت زوجها من ذراعه و أدخلته وهى تغلق الباب .

- ماذا تريد هذه المرأة الكيادة ؟! أتشمت بنا ؟! ولماذا وقفت أمامها هكذا بشكلك الذى لا يسر؟!.

بلع الكلمات فى حلقه،ألم تكن هى التى طلبت منه أن يخرج على البسطة أمام باب الشقة ؟! وماذا كان سيلبس من ملابس وهو يصلح هذا الطقم العتيق ؟!،وجد أن الكلام ليس منه فائدة،وقد شعر بالغيظ من هذه المرأة التى لا تستحى،وأخذت زوجته تقلد فى سخرية صوتها و وقفتها واتكائها على سور السلم بجسمها البدين وهى تهز ذراعيها الممتلئتين بالأساور الذهبية .

- كيف تتحمل هذه المرأة كل هذا الضجيج التى تحدثه بشخاليلها ليلاً و نهارًا ؟! .

قالتها فى حسرة وهى تشير إلى صدرها و ذراعيها و يديها،ربما يكون هذا الضجيج موسيقى فى أذنيها !.

- من يراها هى وزوجها و أبيها عندما جاءوا يترجون أبى الحاج حسانين – رحمه الله – كى يؤجر لهم الشقة بدون أن يدفعوا مقدم شهر واحد كتأمين،و يعتذروا بأن اليد قصيرة لايصدق هذا !،ولمّا علم أبى - رحمه الله – أنهما عروسان أمر بطلاء الشقة على حسابه مشاركةً منه فى ظروفهم تلك مع أنه أراد بيع شققق هذه العمارة تمليك – وكان هذا سهلاً – وينتقل بجوار أعمامى بالجيزة بعد أن يبنى أخرى،كان الحال غير الحال والناس غير الناس !.

ردت زوجته فى غيظ :

- أما القانون فمازال هو القانون !،لقد أمسكت نفسى بالعافية حتى لا أعمل عقلى بعقل ابنهم المفعوص هيثم فأنهره و أريه مقامه و مقام أبيه عندما قال لشريف ابننا إن أباه قد ورث من الحاج حسانين،رغم أنه لا يمت له بصلة أكثر منك أنت ؛لأن شقتهم الآن تعتبر تمليك و ليس إيجارًا،و طلب منه أن يصحبك عندما تصعد إليهم لأخذ الإيجار أول الشهر،وساعتها سيقدم لكما نصف زجاجة عصير بدلاً منه ثم لن يعطيك ولا مليم !،و طبعًا هذا كلام أمه و أبيه أم ترى من أين جاء به هذا الخائب؟!،حرق دمى .

- صحيح كلام يحرق الدم !.

- لكن شريف ابنى ربنا يحرسه و يبارك فيه لم يتركه يغيظه هكذا ويسكت وصفعه صفعة جعلته يفتح باب الشقة ويطلع جريًا إلى أمه،طبعًا تلاقيها سألته عمن فعل به هكذا لكنها لم تجرؤ أن تفتح باب شقتها وتنادى علىّ لتسألنى لماذا ابنى ضرب ابنها ؟!.

- شريف جدع،ابن أبيه صحيح ! .

نظرت إليه بعتاب و ثقة و هى تشير إلى صدرها..

- وابن أمه ايضًا،وإن كنت لا احب ان تكون العلاقة بين الأولاد هكذا.

فابتسم مؤكدًا .

- لكن إن جئت للحق ابنهم لم يكذب ولم يدع أى شىء ليس له،ولكن ماذا أقول ؟!.

- على العموم فرجت إن شاء الله،الشقة رقم سبعة بعثوا أمس واحدًا من طرفهم يقول أنهم مستعدون لترك الشقة لنا مقابل مبلغ من المال .

- أمعقول هذا ؟!،أيتركون الشقة التى يجعلونها لأحفادهم و أقاربهم ومعارفهم من كل جهة مشتى و مصيفًا وسكنًا للدراسة و قضاء المصالح والمجاملات،على حسابنا رغم ثرائهم الواضح ؟!،لماذا ؟!،أستقوم القيامة غدًا؟!.

- لا،هؤلاء لن يتركوها طالما أن أحد أحفادهم على قيد الحياة و أنها صالحة للسكنى لكننى قلت لك شقة رقم سبعة وليست رقم تسعة وهى التى تركها أهلها مقفولة منذ إحدى عشرة سنة لسفرهم بالخارج و لا يحتاجون إليها ولكنهم يستخسرونها فينا،وابننا نحن خاطب عروسته منذ ثلاث سنوات ولا يجد ما يدفع به قيمة الإيجار الجديد فى شقة مناسبة في مكان مثل هذا أو أقل.

- ومن أين له وهو لم يتثبت فى عمل حتى الآن و الشركات والمصانع تسرّح الكثير من العاملين فيها بعد الخصخصة وغيرها ؟!،على العموم هو أخبرنى أنه يريد أن يتزوج فى شقة من حجرة واحدة بمنافعها على مشارف الريف المجاور فى العشوائيات لكن أهل عروسته طبعًا لا يوافقون.

- إياك أن تكون قد وافقته على جنونه هذا،أيتمرغ الأغراب فى خير أبيك وابنك أنت يرمى هذه الرمية السوداء ؟!،عينى عليك يا ابنى !.

- و ما المبلغ الذى يريدونه هم ليتنازلوا و يتواضعوا ويحنوا علينا و يتركوا الشقة ؟!.

- خمس و ثلاثون ألف جنيه،طلبوها فقط جبرًا لخاطر العشرة القديمة !.

- العشرة القديمة ؟!،وكم دفعوا هم خلال ثلاثين سنة كاملة ؟!،أربعة جنيهات إلا ربع فى اثنى عشر شهرًا فى ..- وبدأت تحسب – حتى يطلبوا هذا المبلغ ؟!،ومن أين لنا به ؟!.

آه لو يتركوها بالمعروف كما استأجروها من المرحوم والدك بالمعروف !،كيف يستأجرونها بأقل القليل ثم تنتزع منا تدريجيًا دون وجه حق،و يتملكونها بملاليم لا تساوى زجاجة عصير أومياه غازية،ولما يريدون أن يتركوها يأخذون منا أضعاف ما دفعوه؟!.

- هذه أحلاااام يا أم محمد !.

- بل كابووووس!،تساوى فيه الشقة بضعة ملاليم لأصحابها وتساوى فى نفس الوقت آلاف الجنيهات للآخرين!.

دخل عليهما ابنهما محمد فى هذه اللحظة و فى يده زجاجتا مياه غازية وضعهما على المنضدة فنظر كل منهما للآخر وابتسم،

- خيرًا يا جماعة اللهم اجعله خيرًا،حلم أم كابوس ؟!،وفرك يديه بعضهما ببعض وخطف المسبحة و الطاقية اللتين قد تركهما والده بعد الصلاة من على المنضدة بسرعة وتربع على الأريكة فى انحناءة شيخ عجوز وهو يخفى ضحكه و يلوى عنقه يمنةً و يسرةً .

- حىّ،حىّ،موجووووود.

من منكما يا ابناى سيبدأ وسأجد له التفسير إن شاء الله ؟!،حىّ،حىّ،وغمز أمه فى جنبها فضحكت،حىّ،حىّ،ابدئى أنت يا صبية !.

خبطت يده بخفة حتى تبعده عنها و هى تغالب ضحكها كأبيه.

- ألن تبطل هذه (الأونطة) يا ولد ؟! .

- (أواانطة) ! ،قالها كمن يخاطب حبيبته بحب وهيام – ليس لى إلا أنت يا حبيبتى !،لقد أكلنا (الأونطة)،غصبًا عن إرادتنا وخسرنا الكثير،فلنأكلها الآن بإرادتنا و لنكسب ولو القليل !.

- لقد كنت بعقلك يا ابنى،ماذا حدث لك ؟!.

- حىّ،حىّ،موجووووود،لقد عقلت الآن فقط يا والدى ! .

- طيب،حلم أم كابوس يا شيخنا ؟!.

- لقد رجعتما للموضوع القديم . أليس كذلك ؟.

- وهل لنا غيره بعد أن ..

- لابعد ولاقبل !،

هب واقفًا وألقى المسبحة والطاقية،وجدتها،لدىّ الحل،أبوس يديكما وافقا،أريد أن أتزوج،إلى متى سأصبر طالما الحال ثابت لا يتغير ؟!،خطيبتى ستضيع منى و أنتما تنظران،لقد شاهدت جهاز خالد و عروسه وهم يحملونه إلى شقة أبيه بأعلى،لقد أعطانى دعوة لحضور حفل زفافه وطبعًا سنذهب جميعًا مهما يكن،لا داعى للظهور بمظهر الغيرة أو عدم الفرح لجيراننا.

- اهدأ يا بنى،ماذا تريد ؟ ارس هكذا .

- سيأتى زبون الآن لتأجير شقة رقم ستة بنظام الإيجار بالمدة يعنى و ليس مؤبدًا،و سيدفع مبلغًا كبيرًا غير السمسرة،لقد أقنعت صديقى أن يتفاوض معه و له النصف ولى النصف.

- ومن أين علمت بأمر هذه الشقة ؟!.

- أمر البيع والشراء معروف فى الحى كله إلا لكما أنتما فقط أصحاب الشأن،وإذا كان الآخرون يبيعون و يشترون فى ملكنا فلماذا لا نشاركهم إذا لم تكن لدينا القدرة على فعل ما نريد فيه ؟!،بالمناسبة ليس مستأجر شقة رقم ستة – من يعتبر نفسه مالكًا لها و كذلك يعتبره الناس - هو الذى يفكر فى ذلك و إنما أصحاب الشقة رقم ثلاثة و أصحاب الشقة رقم تسعة أيضًا !.

- و لماذا سيدفع هذا الزبون كل هذا المبلغ طالما أنه يريد أن يستأجر الشقة لا أن يمتلكها ؟!.

- يا والدى كل هذا سيخصم من القيمة الإيجارية لبضعة سنوات وسيزيد من طول المدة أيضًا،صحيح ذلك سيكون على حسابنا نحن ولكن هذا أحسن من لا شىء ! ونحن في أشد الاحتياجد إلى مليم .

- هذا صعب جدًا،أنرى بأعيننا الناس تبيع و تشترى فى ملكنا ونوافق؟!.

انحنى على يدى أمه و أبيه يقبلهما .

- هذا فى البداية فقط،أرجوكما أن توافقا،سنحل كثيرًا من مشاكلنا،أرجوكما أن تجعلا هذه الزيارة تمر بخير،

توالت الزيارات،ولم تتم الصفقة الأولى وغيرها إلا بعد فترة زفت خلالها خطيبة الابن إلى شخص آخر فى حفل بهيج أقيم فى فندق خمس نجوم تحدثت عنه الصحف و المجلات لكن بقدر أقل مما تتحدث الآن عن

إنجازات شركة (أونطكو للبناء والتعمير) التى أسسها رجل الأعمال الشريف الذى يحترم القوانين جدًا !،محمد اسماعيل حسانين.

****

بيئـــــــــة

الصوت عال جدًا ومزعج،بعضهم يدقون على الدرج – على الوحدة –،أصوات صراخ، خناقات، هزار وسخافات،كل هذا و باب الفصل مقفول،المشرف فى الطرقة ذاهب آت،نظر إلىّ .

- والله هذا الأستاذ غلبان !.

ابتسمتُ فى حيرة،هل أتركه ؟!،الأولاد سيأكلونه،زمانهم أهلكوه سخرية و استهزاء ؛ فمن يسلم منهم ؟!، أم أدخل الفصل ؟،ومن سيظننى ؟،مالى أنا و هذا الفصل الذى لا أدرس له و لله الحمد ؟!.

وجدتُ أحد التلاميذ خارجًا من الفصل،أشرت إليه فجاء وهو يهز كتفيه و يديه باستهانة،أشرت إليه لا داعى لإثبات عدم الأخلاق ونظرت فى عينيه فأرخاهما قليلاً فى خجل وشقاوة.

- ها،وماذا أيضًا ؟!.
- و الله يا أبلة هو الذى ضربنى ؛الولد الذى بجوارى .
- لا تحلف بالله .
- لقد لكزنى بكوعه فى جنبى و هرش لى فى قفاى بحنية – وانا أموت من الحنية – فضحكت .

لم أمسك نفسى بسهولة من الضحك و هو يمثل دور الذى يدغدغ له قفاه فيرتعش و يستلقي على قفاه،

- ها !. . و ماذا أيضًا ؟!،ألا تعقل قليلاً ؟! .

تعالى واجلس بجوار حقيبتى و أدواتى فطبعًا أنا لا أجد لهم مكانًا أضعهم فيه إلا هنا،انتظر قليلاً .

دخلت الفصل،به أكثر من خمس وستين تلميذًا – غير نسبة الغياب طبعًا وهى كبيرة – ما بين رافع قدميه على الدرج أو واقف فوقه و بعضهم فى الخلف يتعاركون و قد قطع أحدهم قميص زميله بعد أن شرّح له الآخر حقيبته وجرحه فى يده،وكلاهما مصمم على الثأر من الآخر مهما كانت النتيجة،والبعض يصفرون و يردون على إشارات البنات فى المدرسة المجاورة واثنان منه يقذفون قشر البرتقال و الزبالة على غسيل الجيران،بينما أحدهم يقلد عجين الفلاحة و رقصات القردة فيطلع لسانه و يحك أذنيه و يهز وسطه (ولا أجدع رعّاشة) للحاجة التى تنشر الغسيل فى البلكونة المقابلة .

أما هو فلا يزيد سنه عنهم إلا بضع سنوات،واقف بجوار الحائط،لم ينتبه إلىّ عندما دخلت الفصل بينما كنت أبحث عنه بعينيّ وقد كان يكلم أحد التلاميذ و الولد يشيح له بيده،و يغمز بعينيه لزملائه فيضحكون و يدّعى أنه صاحب حق !.

أشرت إليه مستأذنة فى هدوء،نظرت إلى التلاميذ فى قوة و أنا أعقد ذراعىّ على صدرى بعد أن خبطت لدقائق خبطات عالية متتالية على الدرج بخيرزانة طولها متر،استلفتها من أحد زملائى الذين يخبئونها وقت مرور المتابعين - ربنا يجعل كلامنا خفيف عليهم – حتى يتنبهوا لوجودى،جلسوا فى أماكنهم ينظرون إلىّ متوجّسين و أنا أبادلهم النظر فى ثقة و تحدّ لم يمنع أحدهم من أن يخبط على حقيبته بصوتِ عال،و كأنه يزيل ما علق بها من تراب و ينظر إلىّ فى براءة مصطنعة،منهمك فى عمله الهام الذى لا غنى عنه .

قلبى دق بشدة،فهذا تحدّ لى و جس نبض لقوة تحملى و صبرى و ما لدىّ من عقاب أيضًا – غير موجود طبعًا بعد سلب المعلم صلاحياته فى التوجيه و الردع – قرأت الفاتحة فى سرى و أنا أضع يدى خلف ظهرى وأركز نظرى عليه بثبات من يلجأ إلى الله و لا ملجأ إلا إليه فقد خفت من تهوره و تهورهم،ثورتهم من بعده و لا من نصير !،واعتصمت بصبرى .

- و الله الشنطة متربة يا أبلة وبها كتاب دين .

أشرت إليه أن يصمت و يخرج إلى السبورة .

فكرر كلامه فى وضع المظلوم الذى يدافع عن حقه فى تنظيف الشنطة التى بها كتاب دين – والأبلة الظالمة تحرمه وتمنعه بالقوة !- وواصلت إشاراتى إليه بالخروج إلى السبورة و أن يجعل وجهه لها و ظهره لزملائه فوافق على مضض و أنا متحسبة لأى رد فعل غير متوقع ؛ فشددته من شعره بخفة و أنا أنظر إليه مبتسمة،

- أليس كل منا فاهمًا الآخر ؟!،ألم يكن من الأول ؟!.

خرج مطأطئ رأسه خجلاً و حاول أن يتكلم ؛فلم يطاوعه كذبه ولا مشاغباته فأدار لى ظهره متجهًا للسبورة .

شعرت بارتباك الأستاذ الشديد و هو ينظر فى حيرة ولا يدرى من أمرى شيئًا و لماذا جئت ؟!،وماذا سأفعل معه ومعهم ؟! طمأنته ببضع كلمات تقدير و احترام أمام تلاميذه و طلبت منه على استحياء إذا أراد شيئًا فليسألنى،فاطمأنّ ورجعت أذناه إلى لونهما الطبيعىّ،خفت حمرتهما،و كفت يداه عن الحركة فى عصبية و عمت قسمات وجهه الارتياح ؛ فقد وجد من ينقذه و يسانده .

جاءنى ووقف أمامى مثل تلميذ يكره المدرسة و أرغم على الحضور فجاء دون حقيبة المدرسة كاملة،أفسحت له مكانًا بجوارى و دعوته ليجلس،تردد قليلاً فتشاغلت بإزاحة دفاترى و أنا أقول بتلقائية :

- و هل هناك من يخرج من بطن أمه كبيرًا ؟!.

وضحكت.

فكرتنى والله بأول يوم لى فى المدرسة،أنت فى رحمة كبيرة !،غيرك كره نفسه من أول يوم و لكن يبدو أنك هادئ – عفوًا - هادئ جدًا .

وضحكنا معًا وكأن جبل الغم قد انزاح .

- أحرق الله دم من أحرق دمنا وأوقعنا فى هذه الورطة السوداء،مالى أنا وهذه المهنة ؟! كل حاجة فى المعهد تمشى - و قبض أصابعه ونفضها – هكذا،كما تعلمين !،(الكورس المتين) لمن يريد التفوق أو حتى النجاح لمن معه ما يدفعه ،و الباقون يشترون الملزمة ويضعوا أغلب ما فيها فى ورقة الإجابة،وكل سنة و أنتم طيبون،والحضور حسب الظروف والغالبية لا يحضرون فلماذا أحضر أنا ؟!،وماذا سأستفيد إن لم أكن سأجد مكانً مناسبًا وأسمع علمًا و ليس قصة حياة الأستاذ الدكتور منذ أن قامت الحاجة والدته بولادته الكريمة حتى لحظتنا تلك،مرورًا بانتصاراته على الآخرين وإنجازاته و مناصبه وما حققه من نجاح،رحلات متواصلة لا أول لها و لا آخر من الساحل الشمالى إلى أوربا و أمريكا وجميع دول العالم و،والباقى أنت تعرفينه ؛ فلا عمل بعد التخرج أوعمل السخرة إليه أقرب .

استمعت إليه و أنا أدرك حاله جيدًا،فهو على الأقل فى عامه الأخير فى معهد الخدمة الاجتماعية و قد جاء اليوم ليتدرب ويا له من تدريب !،بعد طول غياب ليستعد لمقابلة أستاذه المرة القادمة .

- بذمتك يا أبلة،أتعرفين ما المطلوب تدريسه فى حصة (البيئة) التى قرروها على التلاميذ هذا العام ؟!،وماذا كنت ستفعلين إذا كلفت بها ؟!.

- ...

- والله أنا لا أعرف وكل من أسأله من الموجهين و أصحاب الخبرة لا يعلمون .

خفضت رأسى خجلاً و شعرت أننى التلميذة التائهة التى وجدت نفسها فجأةً فى المدرسة دون حقيبتها أو حتى حذائها و قد ضاع منها الطريق .

****

الشنكوتى

(حمامة سلام قال) قل صقر سلام !،أسد سلام ! أما حمامة سلام تلك فكلام فارغ لا معنى له !،هاها..
وأصدر صوتًا حاول أن يكون خشنًا قدر الإمكان،ربت على عنق الحصان،هزّ رأسه مخاطبًا له،ومن لا حيلة فيه،كيف يكون السلام معه ؟!.
رأى المعلم دعبس نازلاً من بيته فأشار بيده محييًا والابتسامة تملأ وجهه،خبط عنق الحصان المربوط أسفل البيت برفق،التفت ناحية المعلم يحيه هو أيضًا.
- صباح الفل يا معلم عبس نهارنا قشطة إن شاء الله .
- يسعد صباحك ولد يا شنكوتى،غطست الأسبوع الماضى كله،قلت إنك رجعت إلى المدرسة،ما الذى أرجعك هنا ثانيةً ؟!.
- لا أقدر على بعدك يا معلمى،مدرسة ماذا ؟!،أنت أكبر مدرسة.
- تلهّى يا ولد،هذا ما أنت فالح فيه،اذهب إلى القهوة و جئنى بالاصطباحة حالاً .
- حمامة يا معلمى،هرش رأسه و ابتسم ثم جرى و أتى بالشيشة و هو يشد منها نفسًا و يمسكها بيد و باليد الأخرى يساوى حجر التعميرة،أعطاها المعلم وهو لا يتمالك نفسه من الكحة .
- ن ها ر نا قش طة إن شا اء الله يا مع لم ،كح،كح ..
- يا بنى الوقت مازال مبكرًا،سيجىء الهم إليك يجرى بالمشوار فلماذا تستعجله الآن؟ !.
- هم،هم ماذا يا معلم دعبس ؟!،أنا رجل،والله أرجل من كثير من صبيانك جربنى والله وأنت تكسب .
- يا بنى واضح إنك ابن ناس ،خسارة فيك هذه المرمطة،ارجع لأهلك ومدرستك أحسن .
- أنا أحب هذه المرمطة،أنا المرمطة ذاتها وليس لى بركة إلا أنت يا معلمى و معلم الكل .
قالها وهو يحاول أن يخشن صوته بلهجة صبيان الحوذية ويشوح بيده كأنه منهم،و ما أن رأى أحدهم قادمًا من ناصية الحارة حتى هب واقفًا .
- زبون يا معلمى،زبون على بختى أنا إن شاء الله .
- أقبل نحوه وهو يفرك يديه و يتنطط حوله؛ فيسبقه تارةً ليريه الطريق و نوع العربات الكارّو و أحجامها المركونة أمام البيوت و يتأخر أخرى إكرامًا له .
- نقلة قريبة أم بعيدة ؟،كله موجود،سترتاح معنا إن شاء الله،المعلم دعبس رجل جدع و مهاود،مر أنت وكل شىء يكون فى التمام .
- ابعد يدك عنى يا ولد،أين معلمك هذا ؟.
- ها هو ذا،الذى ينور مطرحه،كاد ينتهى من الاصطباحة،حسن جدًا،وجدته قبل أن يتزاحم حوله الزبائن .
نهره المعلم وهو يضربه على قفاه لتضييقه على الزبون ؛ مما جعله ينزوى بجانبه مقرفصًا على الأرض حتى اتفقا على أن يتكفل المعلم بنقل كل الردم الناتج من تكسير البلاط القديم والدبش و خلافه من شقة الزبون و التخلص من ذلك بإلقائه فى إحدى الخرابات التى تحت سيطرته حتى يتم التصرف فيه،وهو يتابع بعينيه كل ما يدور بينهما متلهفًا أن يرضى المعلم عليه و يجعله يطلع (هذه الطلعة) مع أحد صبيانه،قلبه يخفق بشدة كلما كبّر المعلم فى العملية ليرفع الأجر و أصر الزبون على أنها بسيطة لا تكلف كثيرًا،ولم يهدأ إلا بعد أن صافح المعلم الزبون موافقًا .
- فز يا ولد يا شنكوتى هات الحاجة الساقعة للبك من القهوة،وقت على الأسطى حسنين الحمقى وآت به و اذهبا إلى عنوان البك.
أعطاه الورقة التى بها العنوان و هو يبتسم بخبث .
هب الولد من مكانه وهو يتحسس قفاه .
- لا داعى لحسنين الحمقى هذا،يده ناشفة جدًا و لا يعرف يا أماه ارحمينى ،سأنادى الولد برعى أحسن،
قالها برجاء فرد المعلم بحزم .
- لا . بل حسنين الحمقى،ألست رجلاً ؟ !،وإلا لا تأت إلى هنا ثانيةً،أنا لا يعمل لدىّ حريم .

انتفض لسماعه هذه الكلمة .
- رجل يا معلمى،رجل و سأعجبك .
جرى ناحية بيت حسنين الحمقى و هو يصفر صفارة النداء المتعارف عليها وناداه بقوة ؛ فرد عليه بسبابه الذى يتفنن فيه .
شد الحصان إلى العربة بحماس و ثقة كمن تربى فى اصطبل !،لمحه حسنين الحمقى يعبث فى باطن العربة من أسفل ؛فنهره و أمره ألا يتلكأ،سارع إلى أخذ مكانه لقيادة العربة .
- استرح أنت يا أسطى،أسوق أنا .
صفعه على قفاه صفعة ليست قوية ممازحًا .
- يعنى قلبك علىّ يا ابن ال..؟!.
قفز إلى العربة وطوّح بالسوط فى الهواء واقفًا وهو يصيح،نهارنا قشطة إن شاء الله،لسع الحصان مرةً تبعها بأخرى فأسرع الحصان بالعدو ودوّى صوت عجلات العربة،نخسه حسين الحمقى فى ساقه بقوة.
- أذاهب أنت إلى الديوان ؟!،أبطئ قليلاً،كله على حساب الزبون،مازلت غشيمًا .
أبطأ قليلاً متعمدًا أن يمر فى الشوارع الرئيسية بالحى الراقى محاولاً لفت كل الأنظار إليه بسبابه المقذع للحصان و للطريق وكل ما حوله و لتطويحه بالسوط بشدة فى الهواء محدثًا صوتًا عاليًا مميزًا وبكل الحركات البهلوانية التى تجعله عربجيًا بحق كما يحب،غيرعابئ بسباب حسين الحمقى المقذع له ولا بنخسه من حين لآخر فى جنبه أو فى ذراعه كلما عرج على شارع كبير حتى لا يتعرض لهما أحد رجال الشرطة،محاولاً قدر الإمكان استمالته بكلمات المدح التى يحفظها و يرددها دائمًا للمعلم الكبير ومسايرته فى كل ما يثرثر به حول كل شىء و كأنه عالم ببواطن الأمور بدءًا من سعر الدولار إلى ظلم الحكومة و تضيقيها على الشرفاء (الأرزقية) أمثاله الذين يقودون العربات الكارّو التى لا يمتلكونها فى شوارع المدينة و تسهيلها لراكبى الشبح و العربات عشرة الأمتار الذين ينهبون أموال الشعب و يفرون وغالبًا ما يكرمون و يوضعون على الرؤوس دون الحاجة لأى فرار،وحسين الحمقى مبسوط سعيد بذلك،و كلما زاد انبساطه مازحه بضربة على قفاه أو سبه بأمه و أبيه ومن أنجبوهما،و هو يحفظ ذلك و يختزنه بداخله و يحاول أن يتدرب عليه بين أقرانه فى وسطه السوقى الجديد الذى اختاره،و حاول الانتماء إليه حتى يستطيع أن يكون الزعيم بين زملائه بالمدرسة و النادى و يستحق لقب (الخط)الذى أطلقوه عليه بجدارة فلا يتجرأ عليه أحد و يخشاه الجميع .

حمّل شكائر الأسمنت الورقية الفارغة و أعاد ملأها بالدبش والرمل المبلول و خلافه من شقة الزبون فى الدور الخامس عدة مرات،و كلما أضناه التعب تذكر أن هذا عمله الذى سيجعله كبيرًا،كبيرًا جدًا ربما أكبر من أبيه وأمه و إخوته و كل الناس وكل الظروف من حوله،حتى إذا وصل إلى درجة كبيرة من الإعياء لم تفلح معها كل محاولاته النفسية للصمود و الاستمرار التى تجلب لنفسه السعادة،و الثقة بالنفس،والحرية فى أن يدخن سيجارة ينفث دخانها من حين لآخر فى وجه ابن صاحب الشقة (البنوتة) ذى الشعر الناعم المسترسل و الملابس النظيفة ذات القميص المكوى مغلق الأزرار الذى ينظر إليه بدهشة و كأنه بطل،جعلته يبادله بنظرات الاستهزاء و الشفقة ؛ فمازال والده يعتبره طفلاً ليس لديه حرية التصرف فى كل شئونه،حتى أنه لا يستطيع مجرد تدخين سيجارة واحدة .
أخذ يتمشى أمامه نافشًا صدره مبعدًا ما بين جناحيه مشوحًا بيديه عند الكلام بصوت عال يعتبر وقاحة فى نظر الكبار دون أن يجرؤ أحد على عتابه،سعد بشدة عندما لمح نظرات التضاؤل في عينيه عندما سلم والده الأجرة للأسطى حسنين الحمقى،و صمم هو على أن يأخذ حقه مباشرة منه؛ فهذا مكسبه الذى حصل عليه بعرق جبينه،لوّح بالجنيهات بين يديه عندما حاول عدها عدة مرات وهو يفاصل فى تقدير قيمة عرقه و جهده الذي يثمنه بالكثير .
أخبره أنه تلميذ فى مدرسة (السلام للغات) الشهيرة فى حيهم،ابتسم و هو ينفث دخان سيجارته فى وجهه بعد أن عرف أنهما زميلان فى نفس المدرسة ولكن مع الفارق الكبير- لصالحه هو طبعًا - فأبواه لم يمانعا فى عمله حتى بهذه المهنة بالذات طالما أنها شريفة فهما متفتحان جدًا،ليس مثل باقى الآباء،- قالها متباهيًا - ثم

استرسل فى كذباته المتناثرة بأنه يتشبه بالغرب الذى غزا العالم بفكره وثقافته و يساوى بين أصحاب كل المهن التى تفيد المجتمع و..،كل هذا و ابن صاحب الشقة – البنوتة كما يراه فى نفسه- منبهرًا به و بكلامه خاصةً عندما حان وقت الطعام،واستأذن الأسطى حسنين الحمقى لتناول وجبة سريعة مع حجرين معسل فى القهوة و اعتذر هو بأنه ليس جائعًا الآن و سيكمل الشغل،و صمم صاحب الشقة على تقديم طعام له عندما تغيب الأسطى وصمم هو على غسل يديه قبل الأكل و بعده وأن يتناول طعامه أمامهما بالشوكة و السكين إمعانًا فى إبهار البنوتة..، وإن وترت أعصابه نظرات الدهشة و الضيق من صاحب الشقة خاصةً عندما علم اسمه الحقيقى و عنوانه وبدا عليه أنه يعرف أسرته .

انتهيا من عملهما و ألقيا بحمولة العربة فى إحدى الخرابات،صمم أن يوصله الأسطى حسنين الحمقى بالكارّو إلى بيته رغم بعد المسافة رافضًا أن ينزل و يركب أي مواصلة أخرى،متملقًا له تارةً و متوسلاً له أخرى وهو يصف له أسرته ذات الشأن وعمارتهم فى الحى الراقى و حسين الحمقى يضحك منه مقهقهًا،قاطعًا ضحكاته بسبابه الذى يتفنن فيه،كلما وصف له حجرته و أشياءه الخاصة،أيقن أنه كذاب (هتّاش)،واستفسر منه عن المزيد حتى يضحك منه و يتهكم عليه .

اقتربا من باب عمارته والحمقى غارق فى عماه وحماقته،حتى أسرع إليه سائق عربة والده مناديًا .

- شريف بك .

ذهل عندما رأى هيئته الذرية التى يقود بها العربة الكارو تلك،و يطوح بالسوط فى الفضاء محدثًا ضوضاءً شديدة وهو يقفز من العربة ويخرج حقيبة كتبه وملابسه من أسفلها و يمسك حسين الحمقى من ذراعه ويشد عليه حتى ينزل فى ضيافته و يرحب به بشدة و يأمر السائق أن يوصله إلى حيث يريد ،وحسين الحمقى مرتبك يحاول أن يعدل وضع الطاقية على رأسه و ينفض التراب عن ملابسه ،ينظر إليه تارةً و إلى السائق و العربة الفارهة أخرى ،يخفض نظره و تتعثر الكلمات الخارجة من فيه،أيناديه الشنكوتى أم شريف بك ؟ ومن هو ؟ وماذا فعل معه ؟ !،أيسامحه على كل ما فعل فيه وما قاله من سباب بأبيه البك وأمه الهانم ؟!،ولماذا تحمل كل ذلك ؟!،وماذا سيفعل فيه- هونفسه - أبوه البك ؟!،شد الحصان و لسعه بالسوط بشدة،صهل الحصان مسترحمًا وهو يفر بالعربة وبنفسه من أمامهما و ليس على لسانه إلا لماذا يا ابن الناس ؟!..

دخل المنزل،وجد الأسرة كلها مجتمعة،جرت إليه أمه تحتضنه باكيةً – هل أنت بخير يا حبيبى ؟،انهال عليه والده بالسباب والتأنيب،عربة كارّو ؟!،كارّو يا شريف ؟!،ومن يركب آخر صيحة فى عالم العربات إذًا ؟!.

لاحت على وجهه ابتسامة باهتة،نظر إلى أخويه لأمه،وجد على وجهيهما آثارًا لبعض الصفعات فهم أن والده ضربهما تنفيسًا عن غضبه كعادته،وما أتفه أسباب غضبه وكثرتها !،وهمس لنفسه لا أبًا لهما !،فمن سيكون لهما ؟!. أما أمه فلا حيلة لها .

لقد أتت به إلى الدنيا كحمامة سلام بينها و بين زوجها الجديد،الغنى،الذى ينفق على أخويه منها،لكن لا شىء بلا ثمن ؟!،ولا أثمن من العيشة الكريمة لفرخى حمام يتيمين !.

قبل أن يحاول والده قذفه بأقرب شىء من يديه كان قد تمدد على الأرض متشنجًا فى صياح متصل أتبعه بكلمات غير مفهومة متقطعة بلسان ثقيل وصوت غريب و كأنه يأتى من الأعماق بلهجة سوقية.

أغشى على الأم،سارع الأب إلى التليفون وهو ويزجر كل من حوله،يتوعدهم ويحملهم المسئولية،وهولا يدرى بمن يتصل أولاً،أبأكبرالمستشفيات ؟،أم بأكبرالأطباء؟،أم؟!..

أسرع أخواه بإحضار الشيخ ليتلو عليه بعض آيات القرآن الكريم عله يفيق ويشفى و يخرج من فيه بإذن الله.

جاء الشيخ مبسملاً محوقلاً مصليًا على النبى،تنثال من بين شفتيه آيات القرآن الكريم فى شفافية عذبة،التفت حوله،قرأ أعينهم،تمتم فى هدوء ،لا كرامة لبيت لا يكرم فيه يتيم !.

****

لقاء عارف

يارب هون عتبة جديدة ورزق جديد،قبلت المنصب الجديد و العمل فى هذه المنطقة النائية بإحدى القرى التى ليس لها مكان على الخريطة من باب تغيير العتبة و تحسين الأحوال و إن كانت الحالة المادية تراجعت قليلاً،ولكن الحمد لله،أصلى وأدعو الله منذ ثلاثة أيام عندما أبلغنى رئيسى فى العمل بوجوب حضور الاجتماعات الدورية بالبندر فكأننى ذاهبة إلى امتحان من كل الوجوه !،فالمسافة من المنزل إلى القرية سفرًا طويل يضاف إليه المسافة من القرية للبندر.

دخلت القاعة،وجدتها مكتظة بالشباب و بعض كبار السن من الرؤساء،قليل من السيدات المنظمات والمشرفات على الاجتماعات،فكنت الآنسة الوحيدة بين كل هؤلاء،وفى فترات الراحة كنت أجد من ينادوننى باسمي،يطلبون منى أى معلومات فى العمل ،يعطوننى أوراقًا مثلاً و كأنهم يعرفوننى منذ زمن طويل !،فتعجبت و كنت أرد بقدر ما يستوجب السؤال ولكنهم تعاملوا معى معاملة الأصدقاء !.

تبينت أننى الفتاة الوحيدة تقريبًا فى الإدارة كلها باستثناء بعض الموظفات من أهل القرى المجاورة وهن معروفات بالاسم والعائلة و بالطبع من ترتدى ملابس حديثة تليق بفتيات (مصر) كما يقولون ،المتعلمات العاملات و تركب عربات السفر لن تكون إلا أنا ،و بذلك اكتسبت شهرة بين ناس لا أعرفهم !،كانت الأحاديث بمناسباتها المختلفة تمر بسلام دون تعارف من جانبى،فبدلاً من أعرف نفسى يقولون أنت (لقاء) موظفة فرع المؤسسة فى قرية (بشتا) وتسافرين كل يوم هذه المسافة الطويلة بمفردك !،وفى نهاية الأمر كثيرًا ما كنت أسمع غزلاً صريحًا أوغير صريح و ربما تطور الأمر لطلب يدى للزواج !،فكنت ابتسم و أرفض بذوق فجميعهم على ما أعتقد كانوا أصغر منى سنًا،فأنا أبدو أصغر من سنى كثيرًا كما أنهم لا يعرفون أننى نائبة رئيس الفرع وهذا سبب مجيئى للعمل فى هذا المكان !،ومن يعرف ذلك يظن أن ذلك لم يكن إلا بالواسطة لأننى لابد من أسرة كبيرة ذات اسم معروف،وأنا تنازعنى نفسى بين الحزن والأمل .

إلى أن تلاقت عينانا ودق قلبانا دون سابق انذار حتى خشينا أن يسمعهما الآخرون و يتعطل الاجتماع !،خاصةً وقد اضطررنا أن نتبادل عرض ملخص التقارير التى توصل كل منا فيها إلى نتائج .

بعد الاجتماع،تواطأ كلانا دون اتفاق على صرف من حوله،اتجهنا معًا جهة الباب وكل منا مسوق نحو الآخر بقوة علوية خفية وكأننا هكذا خلقنا !.

- آنسة لقاء،أنا عارف .

- نعم ؟!. .

ارتج قلبى فلم أنطق .

- يكفى أننى عارف،عارف قدرى فهذا اسمى .

ضحكنا فقد عرف كل منا ما أصاب الآخر !،أول شىء نطقت به عينانا قبل شفاهنا هو العطاء،التواصل،فى نفس واحد تلاقت كلماتنا متسارعة و كأن كل منا يتحدث بلسان و قلبه بما يتمنى و يحب .

لم أحلم يومًا بتحقق حلمى و مقابلة فارسى الذى يحتوينى بهذا القدر من المشاعر والوسامة والحضور الطاغى،شعرت فى لحظة أنه اخترقنى و تشبث بى كأننى ملاذه وهو ملاذى اشتد خوفى من الانسياق فيما لا أعلمه،أخافه وأعشقه،استجمعت خلجاتى،حاولت إعمال عقلى كى يكبح قلبى الذى هرب بغتة لأول مرة وسكن من بجوارى وهو سعيد مستمتع يحاول إسكاته بعد أن عرف أنه أصغر منى بخمس سنوات ودموعى التى انهمرت دون أن أدرى وهو يربت على مشاعرى و عقلى و يطمئننى بكل ثقة و حنان،أعطانى فرصًا كثيرة للتفكير وفى كل لقاء كنت أحاول الفرار،وكلما ابتعدت احتوانى أكثر بكل ثقة و اطمئنان .

- يكفينى أنك أنت أنت،وهذا كثييير وأتمنى أن يديم الله ما بيننا .

- ولكن هناك خمس سنوات !.

- ليس هناك إلا أنا وأنت وما بيننا و لا شيء سوى ذلك . أريدك بكل نفس يتردد بداخلى و لا أجرؤ على تركك تفرين،لن تفرى منّى إلا إلىّ . . فأنت أنا وجنين الحب يشهد على ذلك،فلنعطه الفرصة فى الحياة كما وهبها الله له،لماذا نحرمه من الحياة و فيها حياتنا و سعادتنا معا ؟!.

- سأهرب،عقلى يسحقني،كل من حولنا وما حولنا يرفض ارتباطنا وسيوقفه،وقد اشتدت المعركة .

- إلى أين ستهربين ؟!،ولماذا ؟!،وكيف تقضين على من وهبه الله الحياة ؟!،أقاتلة وأنت نبع الحياة ؟!.

- بصراحة كلانا خطر على الآخر،بعد أن تمازج قلبانا فلا يجب أن نتقابل بعد الآن،اليوم الاجتماع الأخير وبعد ساعة على الأكثر ستقف العربة فى محطة الوصول فلتحاول أن تفر أنت كذلك .

- لم أكن أحلم بأن ألقاك أنت أبدًا؛ فأنت أكثر مما تمنيت من الله وقد أكرمنى بك و سأصونك للأبد .

- يا سكن قلبى وساكنه سامحك الله وخفف عنّا،فأنا لك،ولكن كيف ؟! و أين ؟ ! نعم أغفر لك ما كان و ما سيكون،إلا أنك فرّطت فىّ.

- كيف ؟ وأنا أسترحمك أن تدبرى لى لقاء أسرتك و طلبك منهم ؟!.

- لقد عشت حياتك كما تريد وتنعمت بجنة اللامسئولية و الراحة والفقر،وكأن الحياة ليس فيها ما يستحق الكفاح !، لم تشق لننعم بجنة حبنا معًا،فلم تمسك فأسًا و لا قلمًا إلا صدفةً،فلا تجرح كبريائى الجريح بأن أصير يومًا أمًا فقط تدفعك للأمام لا أنثاك،فليستشهد الحب جنينًا خير من أن يموت يومًا.

- سبحان الله،فكأن الذى قضى بهذه المشاعر الشفافة قضى بوأدها .

- فى المهد خير من أن تترعرع و لا تجد من يرويها فتذبل،فالحب دون ارتباط يدعمه بلاء أيما بلاء أخشى عليك و علىّ منه،فلنا الله.

إذًا فلنقض هذه الساعة دون أدنى حديث من العقل الذى أدمى قلوبنا؛ فربما تجمعنا أقدارنا ذات يوم،بعد ما عزّ اللقاء .

وللمرة الأولى تركت يدى لتنام بين يديه ....

****

فانوس رمضان

أرأيتم فانوسى؟،أحلى فانوس رمضان،لمن أقولها ؟،أشعر أن رمضان الماضى أفضل من الحالى وما سيأتى،أين رمضان و رمضان زمان؟.

أغلقت باب حجرتى خلفى،جلست متربعةَ على الأرض ، فتحت ما أحمل من أكياس و علب ثمينة،لم تسألنى أمى كعادتها إذا تأخرت ساعة،و لم يسألنى أحد من إخوتى عما أحمل داخل هذه الأكياس،حتى أبى تشاغل عنى بالتلاوة فى مصحفه الشريف بصوته الخاشع بكامل التسليم بقضاء الله،و كأنه لا يهتم بعودتى المتأخرة من عملى رغم أنى لمحت عيناه تختلسان النظر إلى ساعة الحائط لحظة أن فتح لى أحد إخوتى باب الشقة ثم انفراج قسمات وجهه،و كأنه يحمد الله فى سره وتمتماته بالدعاء بالهداية و راحة البال عندما ألقيت عليه التحية و تركته لأدخل حجرتى،أيتجاهلنى الجميع و يتشاغل عنى ؟! أم أنهم قد سلموا بأنى مشكلة مستعصية تبحث عن السعادة فى ماضٍ ولى و لن يعود؟.

العيد صرت لا أشعر به و لا أفرح رغم أنى أحرص على شراء ملابس جديدة بسيطة اضطر – طبعاَ- أن أبتعد عن القصات المرحة والألوان المبهجة الزاهية حتى لا يتنمرون علىّ - فلاحة ساذجة خارجة من كتاب تاريخ- أصحابى،أسرتى لا يحبون الخروج فى الأعياد للتمشية و التنزه بحجة الزحام الشديد،و أين سنذهب؟ مع صعوبة المواصلات؟،أأنت عيلة تريدين اللعب مثل العيال؟! و ..

أخواتى و أمى يرين فى الكنافة و قمر الدين و المكسرات أنها ضد الرجيم كما أن الأسعار نار،كعك العيد المنزلى دقة قديمة و غلبة على الفاضي و الجاهز يملأ السوق.

حتى التليفزيون،و كأنه قد تحالف مع الجميع ضدى،فنادراَ مانسمع و نرى الأغانى و التواشيح الدينية ذات العبق و المشاعر الموحية !،أين الآذان و قرآن ما قبل المغرب بصوت الشيخ محمد رفعت و مشاهير المشايخ الذين ربطوا قلوبنا معهم بشهر رمضان؟،وأين.. ؟.

أما الأطفال !،فقد نسوا طفولتهم و لم يعودوا يلعبوا بالفوانيس فى ليالى رمضان ويفضلون مشاهدة مسلسلات التليفزيون وبرامجه متكررة الأبطال التى تذاع خصيصًا فى رمضان متناسيةً حرمة هذا الشهر الكريم وكأنه شهر الفوازير و الرقصات والاستعراضات و الموضة وكأن تعرية البطن و غيرها قمة الاحتشام!.

وجدت نفسى تضيق،ولا جديد،و لا قديم يرضينى،رصصت فوانيسى على الأرض وحولي في كل مكان،أخرجت لعبى وعرائسى من الدولاب و تحت السرير،أدرت أزرار حركتهم و أشعلت الشموع فى فوانيسى القديمة،أطفأت الأنوار؛ فتلونت الحجرة بألوان حمراء و صفراء و خضراء بجميع درجاتها،تناغمت و تناشزت جميع الأصوات و الحركات،

هذا فانوس يغنى و يرقص (ماكارينا ماكارينا،)و ثانى يؤذن و ثالث كبير وسط فوانيس صغيرة يغنى (وحوى يا وحوى)و تردد خلفه(ياللا الغفار)و هذه عروستى(دبدوبة التخينة تنط و تقفز و هذه،وهذه،صنع الصين و سنغافورة و تايوان ،و كل خمس دقائق يدخل على أحد أفراد أسرتى،هذه أمى..

- أتحتاجين شيئا يا ابنتى؟!

و إخوتى..

- ألاتكفين عن هذه الضجة و الضوضاء؟!،نريد أن نسمع المسلسل! .

- إنها الحالة التى تأتيها مؤخرا كل رمضان.

- ستأخذ وقتها وتنتهى .

أبى،

- ألاتخرجين قليلا لزيارة صديقاتك؟أو يأتين هن لزيارتك؟!.

قفزت من مكانى و أنا أتعثر فى فوانيسى و لعبى،وجدتها،وجدتها،أجريت بعض المكالمات التليفونية لصديقاتى.

- أريدكن بعد الإفطار لشىء هام.

وضعت السماعة قبل أن تستفسر منى أي منهن عن السبب أو أن أسمع من أيهن التفسير .

رصصت لعبى و فوانيسى جميعا فى أكياس و علب و صناديق،لم أنس (إمساكيات رمضان) الورقية الملونة ولا زينة رمضان التى أحسن صنعها،دخلت المطبخ و صنعت كنافة و قطائف و خوشاف بمساعدة أمى و أخواتى فقد اعتقدن أننى أفقت مبكرا من تلك الحالة التى تنتابنى فى رمضان و سأستقبل صديقاتى فى البيت هذا اليوم،تركتهن يعتقدن ما يردن و أنا أطير من الفرح بسرى اللذيذ .

استقبلت صديقاتى و حملت كلاً منهن أكياسى و صناديقى و ما معى من الحلوى و كل شىء،أوقفت تاكسيا،و لم أدع لأى منهن فرصة للاستفسار .

- مجنونة أنت،متى ستعقلين؟!،

- لقد عقلت !،اليوم فقط أنا أكبر عاقلة بينكن.

نظرت كل منهن لأخرى.

- لن نحتمل جنونك اليوم يا رشا.

- سيفوتنا المسلسلوكله ضحك وفرفشة.

- لقد تذكرت موعداَ،سأتلفن لكِ،أراك غداَ أو بعد غدٍ .

اثنتان فقط من تحملتا جنونى كما قالتا،ووافقتا على اصطحابى أملا فى قضاء سهرة لطيفة أو إرضاءَ لى،

أوقفت تاكسياَ،حمل السائق كل الأشياء متضررا ثم التفت إلىّ..

- إلى أين يا أنسة؟.

- دار أهالينا للأيتام أن شاء الله.

شعرت باستبشاره و هو يقول:

- كله بثوابه إن شاء الله،أنا تحت أمرك لو أردت شراء أى شىء فى الطريق،و الله الأطفال أحباب الله،فما بالكن إن كانوا أيتاماَ ؟!،أه لو نطعمهم و نسقيهم بدلا من إطعام البالوعات وسلال القمامة بما يزيد ويفيض لأسعدناهم و بارك الله لنا.

كنت فرحة جداَ بدردشة السائق معنا و مرتبكة لأننى سأدخل مكاناَ مثل هذا لأول مرة،بطرف عينى لمحت القلق الذى أصاب صديقتىّ ووقد أملتا أن تمضيا وقتاَ لطيفاَ لاهم فيه و لا غم و لا أمل فى تراجعهما الآن !.

طرقنا الباب،فتح لنا،الجو هادئ لا ضوضاء فيه،هالنى العدد الكبير للأطفال المكتوب على إحدى اللافتات و أنا أرى السكون حولى فى كل مكان !،فطفل واحد فى أى بيت كفيل بنشر الصياح حتى بيوت الجيران،صعدنا السلم،الأدوار متشابهة،دخلنا إلى ممر ضيق ينتهى بحجرة المديرة المسؤلة،تسلمت ما معنا و أعطتنا إيصالاَ.

ضاق صدرى ما لهذا جئت !،نظرت إلى صديقتىّ و قد وقفتا استعداداَ للانصراف،وكأن مهمتهما قد انتهت،طلبت رؤية الأطفال،وافقت المسؤلة،و أشارت إلى إحدى المشرفات لتوصلنا،و هى تخبرنا بأن كل ما يصل إلى الدار من هدايا و أموال للأطفال يصل للأطفال،و يمكننا توزيع هذه الهدايا عليهم إذاكان لدينا متسع من الوقت.

فسارعت صديقتاى.

- لا داعى طالما أن الهدايا ستصل إليهم .

- نعم،فليس لدينا أى وقت.

وجذبتانى من يدىّ و هما تخشيان المناظر التراجيدية المحزنة و تأثييرها علينا جميعاَ.

سمعنا صوتاَ رقيقاَ و كأنه ينادى أحداَ (بس،بس،ماما،ماما) التفتنا،وجدنا ثلاث بنات صغيرات تتوارين خلف الباب تمددن بأعناقهن،إحداهن سمراء خمرية اللون نصف شعرها منكوش و الآخر ملموم بشريط على هيئة ذيل حصان قصير،عيناها كلهما شقاوة و براءة،جذبتنى من يدى و طوقتنى بذراعيها الصغيرين و هى تقبلنى فى أقصى موضع يصل رأسها الصغير إليه من جسمى و هى تشب على أطراف أصابعها.

- **ماما،ماما،تعالى لترى حجرتنا،ستعجبك كثيراَ،أنت حلوة جداَ يا ماما،اقعدى - والنبى- معنا قليلاَ،أنا أحبك جداَيا ماما.**

وسط ذهولى و فرحتى ووقع كلمة ماما على أذنى و فى قلبى لم أنتبه إلى أن ما حدث معى حدث مع صديقتىّ، ما أن وقفنا بالباب حتى سمعنا أكبر و أحلى (هيه،هييه)فى الدنيا،جرت الصغيرات إلينا مرحبات وقد فرشن قلوبهن من أجلنا بساطاَ و فراشا.

لحظة واحدة،تكهرب الجو بإشارة من يد المشرفة –التى جاءت إثر ارتفاع صوتهن – بالتزام الهدوء حتى لا يزعجن الضيوف وأيدتها فى ذلك (الأم البديلة كما يطلقون عليها)معتذرةً بأنها تتعب معهن حتى يلتزمن الهدوء و الأدب،فانكمشت كل منهن فى ركنها بخضوع.

سارعنا جميعاَ،لا،لا،هن أحلى بنات فى الدنيا،نحن نريد أن نظل معهن على راحتنا،فتركتانا و هما تحذران البنات من الشقاوة وعدم اللالتزام و إلا..!.

فتحنا الأكياس و الصناديق وسط فرحة الصغيرات و كأننا فتحنا كنزاَ ووزعنا ما بها عليهن،أكلنا الحلوى و شربنا العصائر،لعبنا بالفوانيس والعرائس،تفجرت الأمومة و الطفولة كلتاهما بداخلى،صرت طفلةَ أماَ وأماَ طفلةَ،أنا التى نسيت من أنا؟!،مجرد ألة تعمل و تدرس بقلب شغلته الحياة عن معنى الحياة،غنينا كل أغانى رمضان الجميلة،صنعنا من البالونات و العلب طبلة المسحراتى،لعبت ورقصت مع البنات،بناتى أنا،و كأنني حملت فيهن جميعًا عمرى كله وولدتهن الآن فقط،بل أنا التى ولدت الآن!،الفرحة فى عيون الصغيرات،البراءة،الشقاوة،المواهب الكامنة فيهن،مشاعرهن المتدفقة،ظمأهن للحب و الحنان،رقتهن المتناهية،أصواتهن الناعمة،حرمانهن القاتل من لمسة،همسة،قبلة،حضن دافئ،ابتسامة حب لا شفقة،تدليل لا يتبعه زجر،ربتة كتف،نفس حار يبث حناناَ،حباَ، رضاَ، هدوءاَ،سكينة،يبث الحياة!.

- ماما،أنا أحبك جداً،ماما لا تتركينى،ماما ارجعى لنا بسرعة،ماماهل ستأتين ثانيةً؟،ماماهل تحبيننى.؟،ماما هل أنا حلوة ؟!،أرأيتى عروستى؟،فستانى؟،فانوسى؟،فانوس رمضان؟!،من قالها لى؟،من لم يقلها؟.

أنا ماما،أنا أم،أنا إنسانة،لا،أنا قلب ينبض ويحس ويحب،أنا الحياة.

لم أتركهن !،تركت قلبى لديهن،قلوبنا جميعًا لديهن،خرجنا و فى يدى صديقتى (أمينة) و (حياة)،و فى يدىّ وفى قلبى(أمل) أتدرون؟!،ابنتى أمل التى أكفلها،فتحت قلبى و عقلى و كل مسامى للحياة،فتحت لى أبواب الرزق و السعادة فقد وجدتنى،وجدت نفسى المطمئنة السعيدة الراضية و قد صار لى،زوجى،،أبنائى وكبراهم (أمل) فقد أحبنى حبيبى بعد أن أحبها ككل من رأها.

****

على كفوف الراحة

أخذ يلف فى الشوارع كعادته ،وحيدًا لا يلوى على شىء بجسده الناحل و عصاه الغليظة التى يتوكأ عليها و يعتز بها؛ فهى(قدم السعد) عليه كما يرى؛ فما أن ينكمش فى نفسه و يزيد من إنحناءة ظهره و يسعل سعلتين، و يراه أحدهم أو شرطى المرور حتى يوقف العربات ليعبر الطريق، يجد من يعاونه فى ركوب الأتوبيس و من يترك له مقعده،و من لا يفعل ذلك فهو لا يراعى للسن حرمة وابن لهذا الزمن الردىء الذى سينقلب عليه يومًا،يظل يسرد على الجميع بصوته الجهورى الذى يخفضه حينًا فى تهدج إذا أراد استعطاف أحد،أو تأليب بعض الحضور على أحد الشباب الذى تأخر فى تقديم خدمة ما أو مساعدة له ويرفعه حينًا عندما يروى بعض قصص بطولاته أيام الصبا و الشباب و كيف أنه كان يتدخل فى أى مشاجرة - لوجه الله - فيضرب الظالم المتعافى ضربة واحدة بقبضته الفولاذية فى أنفه تفقده توازنه وتغرق وجهه و ملابسه بدمه،عندئذ يدير رأسه بين الحاضرين ليرى وقع المفاجأة عليهم،ولمّا يتأكد أن الجميع انبهر بقوته وفتوته – ولله الحمد – يخرج المشط من جيبه و يمشط شعره ويسوى شاربه ويعدل من هندامه و يمشى رافعًا رأسه ويديه فى جيبه ثم يردف و الله كانت أيااام!،و ينظر إلى عصاه فى تحسر و يشير إليها قائلاً :

ولكن عزيزة لم يكن لها وجود فى ذلك الوقت،لكنها نافعة لى الآن وليس لى عنها غنى !.

ثم تلمع عيناه بنشوة أنها دليل قوة و ليس ضعف،فيقف متثاقلاً و يتجه نحو باب الأتوبيس و سط الزحام ويتنحنح و يكح،يدك يا ابنى،وسعى يا بنتى،إلى أن يصل إلى الباب و ينزل درجة من السلم و يتحامل على نفسه ليقف منتصبًا فيلفت ذلك نظر السائق .

- تنزل هنا يا والدى ؟
- يا ليت يا ابنى،ربنا يبارك فى صحتك و يحرسك لشبابك .

عندئذ ينزل فى غير المحطة المخصصة للنزول دون أى داع ؛ فهو لا يريد مكانًا معينًا و إنما يمارس هوايته فى التنقل خلال المواصلات العامة و المشى فى الشارع متمتعًا برعاية الآخرين و عطفهم،ثم يمشى فى ثبات مستندًا على عصاه و يتجه إلى أقرب مسمط أو محل كباب أوحتى كشرى – حسب الحال – ليكافئ نفسه بوجبة دسمة لذيذة لا يقل طبق الحلو بعدها عن أم على بالمكسرات أو بسبوسة بالسمن البلدى .

اليوم لم ينس أن يشترى طبقًا كبيرًا من الحلوى للست (أم يسرى) ليصلحها مع زوجها (أبو يسرى)ابن عم زوج أخته – لزم – صحيح هو لم يره منذ ثلاث سنوات و أكثر ولكنه يهوى الإصلاح بين الزوجين المتخاصمين خاصةً إذا كانت الزوجة بيضاء ممتلئة القوام،عندئذ لا يقاوم نفسه وينشط لعمل الصالحات حبًا للخير !،فهو كبير عائلته وفى العقد السابع من عمره ،إن لم يقم هو بهذه الأمور فمن الذى سيقوم بها ؟!،كما أنه يستطيع أن يختلى بالزوجة و يقنعها و يحاول إثناءها عن طلب الطلاق دون أن يكون فى الأمر شىء .

قابل أبا يسرى فى القهوة كما اتفقا من قبل أثناء مفاوضات الصلح التى قام بها عن طريق التليفون معه و مع الست أم يسرى والتى كانت تستمر لساعات،ثم ذهبا معًا إلى بيت أهلها و معه الهدية ؛ فقد علم ذات مرة بنوع الحلوى التى تحبها الست أم يسرى فأصر على شرائها لها من أجود الأصناف،انتهت (قعدة الصلح) برضا الطرفين ووافقت الست أم يسرى على العودة إلى بيت زوجها على مضض بعد أن أصرأن يقبل هو رأسها أمام الجميع و هو يقول لها :

- المسامح كريم يا ست أم يسرى،يربت على ذراعيها الممتلئتين ويغمز بعينيه لأبى يسرى غمزة ذات معنى بأن يهتم بها و يراضيها،و صمم أن يأخذها من يدها ويوصلها مع زوجها إلى بيتهما وسط سعادة الجميع ودعواتهم له بالصحة وطول العمر،ومدحهم له بأنه رجل بركة لا يفوته واجب ويعرف الأصول .

وأبو يسرى يؤيد ذلك،وإن كان فى نفسه شىء منه؛ فهو لم يترك يد زوجته البضة طوال الطريق،و يميل عليها و يسر إليها كلامًا يجعلها تتمايل مرحًا يخالطه الخجل فيزيد من اقترابه منها ويرفع صوته قائلاً أنت مثل ابنتى،ثم يلتفت إلى أبى يسرى ويخبطه بعصاه بخفة:أم ماذا ؟!،يضم أصابعه لأعلى و يرفعهم و يخفضهم طول بالك، الحريم يحتجن ذلك،وأبو يسرى يبتسم مجاريًا له على مضض وهو يتميز غيظًا .

رجع إلى بيته منتشيًا بعد أن اشترى حملاً ثقيلاً من الحبوب لغية الحمام التى يقيمها فوق السطح لطعامه الخاص به - فنادرًا ما يطعم منه أحدًا- ولصحبته والاستمتاع بطيرانه وأنواعه المختلفة ؛فهو نعم الرفيق بعد أن تركه زملاء العمل و الجيران،إما لتركهم الدنيا دون سؤال منه عليهم أو لعدم صبره أو صبرهم على صحبته !.

رآه أحفاده يطلع السلم خلف ابن الجيران الذى يحمل أكياسه الثقيلة عنه ؛فصاحوا..

- جدو جاء،أين كنت يا جدو ؟!،كلنا انشغلنا عليك .

فزجرهم وقد رسم على وجهه الكآبة والعنف .

- صمتًا لا أريد إزعاجًا .

انكمش الصغار،تسحبوا صاعدين السلم بهدوء ليخبروا جدتهم و أمهم بمجىء الجد ،وهو يصعد السلم خلفهم و يدقه بعصاه متضجرًا .

فابنته لم تعد لبيت زوجها و هو لا يريد إزعاجًا من أبنائها و لا من مشاكلها مع زوجها،ثم توقف قليلاً و خبط الأرض بخفة وابتسم ساخرًا عندما سمع زوجته تشكر ابن الجيران الذى صعد بهذه الأكياس الثقيلة رغم أن زوجها قد تشاجر مع أبيه منذ شهر وأخطأ فى حقه ولم يعتذر له أو يكلمه منذ ذلك الحين !،تذكر أنه لم يعط زوجته نقودًا لعلاجها ومصروف البيت منذ فترة طويلة فواصل صعوده السلم مصممًا ألا يعطيها ملّيمًا ؛ فقد آن له أن يستريح،ولينفق أبناؤها الذين سبق وأنفق هو عليهم !،وليعش ما بقى من عمر سعيدًا فمن حقه أن يحمل على (كفوف الراحة) .

دخل من باب الشقة،ألقى التحية باقتضاب ولم يجب عن أى سؤال عن سبب تأخيره،و أين كان ؟، ولماذا لم يتصل بالتليفون ليطمئنهم عليه،أو حتى ليطمئن هو على ابنته ؟!،كل ذلك وهو سعيد وينظر إليهم بهدوء وهم يتميزون غيظًا،أمر زوجته بإعداد الحمام وبعدها ذهب لفراشه.

لم يأت عليه الصباح إلا وهو محمولاً على الأعناق،على كفوف الراحة كما تمنى دائمًا،لكن هل كان سعيدًا كما أراد ؟ ومن حمل عنه أحماله ؟!،وكم من الأحباب والأصحاب سار خلفه؟! و......

*********************** **

الفـهـرس

م	العنــوان	ص
1	الإهــداء ،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،	

2 الكريم،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،.
3 أمنية،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،.
4 انتظروني،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،.
5 بساريا،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،.
6 سعادة،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،.
7 صياد الهوى،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،.
8 عم عبده،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،.
9 فضه منوره،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،
10 يحسبهم،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،
11 الحذاء المفقود،،،،،،،،،،،،،،،،،،،
12 امتحان،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،.
13 أمومة،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،.
14 أونطة،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،.
15 بيئة،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،
16 الشنكوتي،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،.
17 لقاء عارف،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،
18 فانوس رمضان،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،
19 على كفوف الراحة،،،،،،،،،،،،،،،،،،
.2 السيرة الذاتية،،،،،،،،،،،،،،،،،،
21 صدر من السلسلة ،،،،،،،،،،،،،،،،،،
22 الفهرس ،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،.